

وبعد فاعلم أن النية عليها مدار الثواب والعقاب كما علمت مما مضى فإذا كانت المرء يتحدث بعمله الصالح أو يظهره بين الناس ليكون قدوة صالحة لهم ومثالا حسنا يقتدون به لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته بتشر الفضيحة وإحيائها بين الناس من غير أن ينظر إلى مدحهم وذمهم فلا يشبهه عن عمل الصالحات شيء من ذلك . ولا يغريه عليه رضاء أحد من الناس على أن يكون يقظا لا يجعل للغرور والعجب إلى نفسه سبيلا فإن عمله على ذلك الوجه لا يكون داخلًا في باب الرياء بل يكون مطلوبًا وقد يكون واجبا إن تأكد من اقتداء الناس به في عمله الصالح ويكون له على ذلك أحسن الجزاء وأفضل الأجر . وكذلك تنظر الشريعة الإسلامية الكريمة إلى جميع الأعمال فإن ترتب على العمل فساد كان مذموما سواء أكان في ذاته فرضا أم نفلا وإن ترتب عليه صلاح كان ممدوحا لجميع أحكامها وقضاياها مبنية على جلب المصلحة ودرء المفسدة عن المجتمع الإنساني وكمالها ترمي إلى تهذيب النفوس وتطهير القلوب وتربية النوع الإنساني أحسن تربية وتأديبه أفضل الأدب ويكفي في ذلك قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) فعلى العاقل أن ينزه نفسه عن الرياء وأن يطرح الناس جانبا فلا يبالى بمدحهم ولا يخشى من ذمهم وعليه دائما أن يزن ما يحصل عليه من ثقتهم به وما يناله من وراء ذلك من اللذات الزائلة بما يحصل عليه بالعمل الخالص لله تعالى من نعيم خالد وسعادة دائمة فإنه إن فعل ذلك هانت عليه لذات الحياة الدنيا وسهل عليه أمر شهواتها وكان في كل أعماله من قرائض وسنن مخلصا لله تعالى الذى لا يستحق العبادة إلا هو وهو سبحانه لا يضيع عنده مثقال ذرة من العمل الصالح وسيجزى العاملين جنات النعيم

الباب الثاني

في الغضب

تعريفه

هو قوة طبيعية تنور من باطن الإنسان فتحملة على الدفاع عما يحبه من الأغراض وتدفعه إلى البطش بكل ما يؤذيه فإذا اعتدى عليه معتد أو حيل بينه وبين أغراضه تنور تلك القوة فيغلي دمه وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن فيظهر أثره على ظاهر الوجه والعينين فعنى الغضب غليان دم القلب لدفع المؤذيات قبل وقوعها أو الانتقام والتشفى بعد وقوعها على أن الغضب بديهي معروف في الإنسان والحيوان وأثره محسوس فلا يحتاج إلى تعريف

درجات الغضب

وحكمة خلقه في الانسان

للغضب ثلاث درجات وهي : اولا . درجة الاعتدال وذلك بان يغضب ليدافع عن نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله أو يغضب ليدافع عن الحقوق العامة ونصرة المظلومين وتلك الحالة هي التي من أجلها خلق الله الغضب فهو مخلوق لحكمة ضرورية تقتضيها طبيعة العمران ويتطلبها نظام المجتمع الانساني فان التزاحم في هذه الحياة يستدعي دفاعا قويا عن النفس والدين والمال والعرض . فخلق الله الغضب في الانسان ليحملة على الدفاع عن هذه الأمور الضرورية لحياته فيصد عنه الأثرار الذين يحاولون الاستقلال بما يراحمون فيه من لذات الحياة ومتاعها أو يحاولون سلب ما بأيدي الناس مما لا يستطيعون الحصول عليه بالوسائل المشروعة وكذلك يحمله على الدفاع عن عقيدته التي هي اقدس شيء لديه في هذه الحياة تلك هي حكمة خلق الغضب في الانسان ولولا ذلك لفسدت الأرض بانتشار الفوضى وتقويض دعائم النظم الاجتماعية والدينية لأن من لا يغضب لعرضه لا يغار على نسائه فتختلط الانساب وتعم الفوضى في ذلك الباب ويصبح الانسان كالحیوانات التي يسطو بعضها على بعض بدون غيرة ولا حمية ولا معرفة لما يترتب على ذلك من التناسل الذي به حياة النوع الانساني وبقاء العمران الى الاجل الذي قدر له في ذلك الوجود . ومن لا يغضب لنفسه فانه يكون معرضا للزوال من هذا الوجود او معرضا لأن يسخره غيره كما تسخر الدواب والانعام التي لا تغضب لنفسها . ومن لا يغضب لماله فانه لا يلبث أن يسلبه الناس منه ويصبح فقيرا معدما . واذا فشى سلب المال فان نظام العمل يتعطل وتبطل الاعمال التجارية والصناعية والزراعية ويعتمد الناس على سلب بعضهم بعضا . ومن لا يغضب لدينه فانه لا يستقر على دين لأن اختلاف طبائع الناس واختلاف انظارهم من اكبر البواعث على اختلاف معتقداتهم فن لا يغار على دينه يكون عرضة لتقليد القوى في كل ما يراه فينقل من دين الى دين وهكذا وكل ذلك طبع في الانسان فان الناس منطوروون على التنازع فيما يشتهون والتزاحم على ما يحبون ولا يزالون مختلفين في طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم ومسوقين بعامل اللذات الى محاربة من يستقل بامر من الأمور التي يشتهونها ولا يملكونها . فخلق الله الغضب ليحمل الناس على أن يدفع بعضهم بعضا فيستقر النظام ويقف كل واحد عند الحد الذي قدر له في هذه الحياة والى ذلك يشير قول الله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) وكذلك قوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا) ثانيا . درجة التفريط وهي أن ينحط الغضب عن درجة الاعتدال بان يضعف في الانسان أو يفقد منه رأسا وتلك الحالة مذمومة شرعا وعقلا لأن من لا يغضب لعرضه أولدينه أو لنفسه أو لماله فهو جبان لم يجرى على سنن الله في خلقه ولم يستعمل تلك القوة التي خلقها الله في الناس ليدفع بها بعضهم بعضا وفي ذلك ضرر عظيم على المجتمع الانساني لأنه يثير الفوضى في جميع نواحي الحياة كما علمت وذلك موجب لفساد الارض وهلاك الانسان

ثالثا درجة الافراط وهي أن يخرج الغضب عن حالة الاعتدال فيطغى على العقل والدين فلا يقصر المرء غضبه على ما يلزم أن يغضب من أجله بل يتعداه إلى أقل الامور وأيسر الأسباب فيغضب لها غضبا شديداً ويندفع في سبيل الشر اندفاعا قد يفضي به إلى الهلكة من حيث لا يدري . وربما جره غضبه من أجل أمر يسير إلى اعتراف أكبر الجرائم وشر الموبقات كأن يغضب على من لا يقف إجلالا له فينتقم منه في مركز الحكم ويقضى عليه ظلما وعدوانا . أو يغضب على من لا يظهر له الخضوع والاستكانة فيؤذيه بالضرب والشتم . أو بالاعتداء على مورد رزقه . وربما ساقه الغضب إلى أن يفعل ما لا يصح صدوره عن الانسان كأن يغضب على من يأمره بمعروف أو ينهيه عن منكر أو يحول بينه وبين شهوة محرمة .

ولا ريب في أن ذلك وحشية يستنكرها العقل السليم وتفر عنها الطباع المعتدلة لأن مثل من يفعل ذلك كمثل الذي يعتدى على الطبيب الذي يريد أن ينقذ حياته من العدم . وذلك نهاية السفه وغاية السخف وكذلك قد يسوقه الافراط في الغضب إلى أن يعتدى على من يطالبه بحق من الحقوق . أو يغضب على من يرزقه الله علما أو مالا أو مناصبا أو جاها فينقلب غضبه حقداً وحسداً . إلى غير ذلك من الجرائم والشرور . وبديهي أن الغضب في تلك الحالة مذموم عقلا وشرعا وتتفاوت درجات ذلك الذم بتفاوت الآثار المترتبة عليه قوة وضعفاً فكلما اشتد ضررها كان الغضب أكثر ذمّا وأكثر جرماً . فطغيان الغضب وخروجه عن حد الاعتدال ومخالفته للعقل والدين شر عظيم وخطر شديد على المجتمع الانساني فان آثاره السيئة لا تنقف عند حد ولا تنحصر في عدد وكفى به ذمّا أنه يبعث إلى ظلم الأبرياء والاعتداء على خلق الله تعالى بدون مبرر . وذلك شر الجرائم وأكبر الموبقات

أسباب الغضب

للغضب أسباب كثيرة تختلف باختلاف امزجة الناس واستعدادهم للتأثر بالاشياء . فرب شخص يغضب لأمر يراه غيره سببا في مسرته وذلك كثير الوقوع بين الناس فليس من غرضنا بيان هنا انما الغرض ذكر الأسباب التي يرجع اليها طغيان الغضب وسرعتها غالبا . فمنها الجدال . والمزاح والسخرية بالناس والاستهزاء بهم وإطلاق العنان للسان فلا يبالي أن يسب غيره أو يلغنه أو يفتابه أو ينم عليه . إلى غير ذلك من آفات اللسان . كذلك الكبرياء والعجب وسند ذكر لكل منها مبحثا خاصاً .

أما أن الجدال . والخصومة . والمزاح . ونحوهما من آفات اللسان من موجبات الغضب فهو ظاهر . وأما أن الكبرياء والعجب من موجبات الغضب فلأن المتكبر المعجب بنفسه يتأثر كلما

فانه ما يعتقد أنه ينافي عظمته وخيلاه فاذا طالبه أحد بحق احتاج غضبه وكذا اذا نهاه عن رذيلة أو إذا تصدر مجلساً دونه أو إذا عارضه في أمر وهكذا. وذلك لأنه يعتقد أنه كامل من جميع الجهات فلا يصح لأحد أن يأمره أو ينهيه أو يقف في سبيله أو يتقدم عليه وهو في الواقع ناقص من كل وجه ويحاول أن يجبر نفسه بكبريائه كما سألته لك في موضعه.

ومنها الاستعداد الفطري فقد يكون الانسان مستعداً بطبيعته لسرعة الانفعال والغضب حتى لقد يراه الناظر اليه في صورة الغضبان بدون سبب ويساعد على ذلك حدة مزاج القلب . ومنها مصاحبة الأشرار الذين لا يفرقون بين الممدوح والمذموم من الغضب فيحسبون الثور شجاعة ويمدون طغيان الغضب الموجب للظلم رجولة فتتأثر نفسه بذلك وتصبح سرعة الغضب عادة مكتسبة له .

ومنها فوات اللذات والشهوات من مطعم ومشرب ومسكن ووقاع وغير ذلك وتلك اللذات وإن كانت مملوكة له حلالاً وحيل بينه وبينها بدون مبرر شرعي فإن له الحق في أن يغضب حتى يسترد حقه ويكون الغضب في هذه الحالة من القسم الممدوح إلا أنه إن كان الذي فاته ضرورياً له كان الغضب من أجله واجباً وإن كان كالياً كان الغضب من أجله جائزاً . أما إن كانت حراماً عليه أو غير مملوكة له كما إذا غضب للحيلولة بينه وبين امرأة لاخلل له أو غضب لفوات دعوة إلى وليمة ليست مملوكة له ونحو ذلك فإن الغضب لذلك يكون من القسم المذموم

ومنها الوشايات والنائم فمن الناس من يغضب لمجرد وشاية نقلت اليه عن بعض الناس . أو لمجرد نسيمة بلغته من نمام بدون أن تثبت في الأمر فيعتدى على الأبرياء بقطع أرزاقهم أو حرمانهم من حقوقهم . أو لئذائهم في أبدانهم أو القدح في أعراضهم . إلى غير ذلك من الجرائم التي تترتب على الغضب . وربما كانت الكلمة التي نقلت اليه على فرض صدورها لانسأوى شيئاً من غضبه . وذلك شر ما يترتب على الغضب من الظلم وأقبح ما يؤخذ به الانسان من الموبقات خصوصاً إذا كان ذا سلطة ونفوذ فيستعملها في الخفاء . أو في العلانية ضد من يغضب عليه بدون سبب صحيح وبدون أن يمس له من وسائل الدفاع عن نفسه ما قد يثبت براءته عنده . ولذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فاتكم فادمعون) فمن كانت نفسه تتأثر بمثل ذلك فيجب عليه أن يعالجها بالتثبت حتى إذا تأكد من صدق ما نقل اليه كان له الحق في أن يدافع عن نفسه بقدر ما أصابه بدون بغى ولا طغيان والعفو في مثل هذه الحالة أفضل . خصوصاً إذا أنكر المنقول عنه ما نسب اليه فإن الانكار اعتذار يستوجب الرأفة والرحمة ولقد نهى الشارع عليه الصلاة والسلام عن سماع النائم والوشايات كما سيأتي بيانه مفصلاً .

ومنها المشاحة في البيع والشراء فيغضب الواحد إذا لم تسوّم سلعته على حسب ما يشتهي . أو يغضب إذا ساومه أحد سلعته ثم لم يشتريها منه . ومثل ذلك ما إذا طلب من أحد أن يقرضه مالاً أو يعيره شيئاً فلم يجبه . وكذا إذا طلب منه أن يعينه في عمل خاص فأبى إلى غير ذلك . والغضب في مثل

هذه الأحوال حاقلة لا مبرر لها لأنه مادام لم يعتد أحد على حقه فليس له أن يغضب مطلقا فإذا غضب كان غضبه مذموما

فمن كان سريع الغضب بطبيعته أو كان الغضب مكتسبا له بالطبع فيجب عليه أن يعالج نفسه في مثل هذه الأمور بالتحرى عن يطلب منه فإن هذه الأمور وإن كانت هيئة في ذاتها ولكنها قد تذهب بسرعة الغضب إلى مالا تحمد عقباؤه فإنه إذا ثار غضبه لا يقف به عند الحد المعقول وعليه أن يعتدل في بيعه وشرائه وأن يبرن نفسه على احتمال ما يقع عادة عند البيع والشراء من النزاع .

ومنها ما يستحكم في نفوس بعض الجبهة من الرذائل فإن بعض الأشرار من هؤلاء قد تنعكس طبائعهم فتصبح الرذيلة فضيلة في أنفسهم فيباهون بالجنايات ويفخرون بالمورقات فيغضب الواحد منهم إذا قيل له أنك لا تشرب الخمر كثيراً أو أن خليلك غير مطيع لك أو أنك لا تحسن لعب الميسر وهكذا ومن كان هذا شأنه كان ذاؤه ويلا ومرضه مستعصيا قد لا ينفع فيه علاج ولا تؤثر فيه موعظة . على أن المرشد لا يأس من الإصلاح على أى حال فعليه أن يحذر مثل هذا عاقبة الشهوات الفاسدة ويضرب له الأمثال بمن صرعهم الأفراف فيها فقد أصابته الأمراض القاتلة بسبب ذلك وحل بهم الفقر والبؤس حتى أصبحوا من المتسولين . فكل من يغمس في تلك الشهوات يكون هذا مصيره لاحالة فيذهب عقله وبدنه وماله ويكون عرضة لنكبات الزمان ومحن الأيام فضلا عما أعد له في الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم فلعل ذلك ينفع في علاجه ويرد إليه بعض رشده .

ذلك معظم الأسباب التي تثير الغضب وتهيج . والغضب المترتب عليها كلها مذموم عقلا وشرعا إلا ما كان منها متعلقا بالدفاع عن العرض والمال والدين والنفس كما علمت . أو كان متعلقا بالدفاع عن الحقوق العامة ونصرة المظلومين فالذين يغضبون لذلك هم الذين كللت طبائعهم وقويت عقولهم فأصبح سلطانها على الغضب كاملا ولقد امتدح الله تعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حيث وصفهم بالشدة في قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء بينهم) والشدة لا تنبعث إلا عن الحمية والغضب وهم لم يغضبوا إلا لله ولم يدافعوا إلا عن دينهم ووطنهم وكيانهم فكانوا أهلا لرضاء الله عنهم وكانوا أحسن قدوة لمن يناضل في سبيل الحقوق العامة ويدافع عن كيانه ودينه وكرامته لجدير بالعقلاء أن يكون ذلك شأنهم دائما فلا تنور أنفسهم لسفاسف الأمور وتأفها بل يلزم أن يقصروا غضبهم على المواطن التي يمدح فيها الغضب ليظفروا برضوان الله تعالى وثناء المجتمع الانساني .

ومما يلزم التنبيه له أن الشريعة الاسلامية قد جعلت لاستعمال ذلك حدودا يلزم الوقوف عندها فمن تجاوز هذه الحدود فقد انعكس عليه الأمر وأصبح غضبه مذموما . مثلا إذا اغتصب أحد منك درهما أو سبك بكلمة أو لطمك لطمة فإن لك الحق في أن يثور غضبك بقدر ما أصابك من الاعتداء . ولك الحق في المطالبة بالجزاء الذي أعده الحاكم . لذلك من قصاص وتعذير فإذا لم تملك غضبك ولم تستطع

كظمه الى أن ترفع أمرك للحاكم فإنه يجب عليك أن تصون لسانك عن الفاحشة وسب الوالدين والنية والنيمة فإذا قال لك يازاني مثلاً حرم عليك أن تقول له مثل ذلك ، وكذلك إذا سب والدك فإنه يحرم عليك أن تسب والديه وكذا إذا اغتابك في مجلس وعلبت بذلك فإنه يحرم عليك أن تنتقم لنفسك باغتيابه . ومثل ذلك ما إذا نمت عليك أو وشى بك . وذلك لأن كل هذه صفات يجب أن يفتقر عنها المرء دائماً فإذا فعلها شخص وقع مع غيره لا يجوز له أن يكون مثله في هذه الوقاحة على حساب الغضب لمرضه أو لدينه وله الحق في أن يغضب ليرده بالوسائل الأخرى كرفع أمره للحاكم أو بالتويخ والتفريع والزجر ان كان ينفع فيه هذا

العفو عند الغضب

أما العفو عن مثل ذلك فإنه ينظر فيه الى حال المعفو عنه فإن كان ممن يصلحهم العفو ويترك في أنفسهم أثراً حسناً فيكون سبباً في أن يراجع الواحد نفسه ويلومها ويتخذ منه درساً نافعاً وعظة . كان العفو في تلك الحالة جميلاً كما لو كان الذنب الذي من أجله العفو وقع خطأ أو نسياناً . وفي مثل هذا يقول الله عز وجل (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) فالمحسنون هم الذين يحسنون الى الناس بأعمالهم وأقوالهم التي تنفع . فإذا كان العفو ينفع ويصلح المعفو عنه كان احساناً . أما إذا كان سبباً في اغرائه على التماذى في العدوان على خلق الله وباعثاً له على الفحشة وسوء الأدب ومجرتاً له على ارتكاب المعاصي . أو كان الذنب الذي ارتكبه يوجب حداً من حدود الله تعالى فإن العفو في هذه الحالة لا يجوز لأن العفو حينئذ يكون إساءة لا احساناً . وفي مثل هذا يقول الله عز وجل (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) .

هذا أصل من أصول الشريعة الإسلامية السمحة وهو تأديب المجتمع والأفراد واصلاحهم بكل الوسائل فما يجلب صلاحاً ونفعاً ويدرك فساداً وضراً فإنها تأمر به وتقره وبالعكس . قد يقال إن العفو إذا تكرر يكون من أحسن الوسائل التي بها تملك النفوس وتخضع الاعناق ألا ترى أنك إذا واليت حيواناً مفترساً بالاحسان اليه فإنه يذل لك ويخضع . فما بالك بالإنسان اللهم الا أن يكون ذى جنة لا يعبى ولا يعقل . ومثل هذا لا يقام له وزن ولا يعبأ له بعمل ومن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابتغوا الرفعة عند الله تعالى قالوا وما هي يا رسول الله قال تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عن جهل عليك » فلا ريب أن الناس إذا عملوا بتلك

الحكم العالية فان العداوة والبغضاء ترتفع من بينهم وتقل الخصومة والمنازعة فيهم وينعدم الحقد والحسد من أنفسهم فان النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فانها لا بد أن تلين وتخضع بموالاته الاحسان وتكرار العفو . وهذا القول في ذاته حسن ولكن الواقع ان طبائع الناس في ذلك تختلف كل الاختلاف . فمنهم من يصلحه العفو . ومنهم من يغريه ويطفئه بلا نزاع وعلى هذا جاءت الشريعة الاسلامية فتى انتج العفو تلك النتيجة التي ذكرت فهو حسن ممدوح . أما اذا كان ينتج القوضى واساءة الأدب أو كان في حد من حدود الله تعالى فلا شك في أنه يكون حراما مذموما .

علاج الغضب

قد علمت ما تقدم أن سرعة الغضب تارة تكون طبيعية وتارة تكون مكتسبة بالمصاحبة والاختلاط فمن كان سريع الغضب بطبيعته فانه يعالج باجتناّب الأسباب التي تثيره كالمزاح والجدل والكبرياء والخيلاء .

ان هذه الصفات مهما تمكنت من النفس لا يمكن أن تكون طبيعية بل هي صفات عارضة لأسباب معرضة للزوال من آن لأن فان الذي يتكبر لكثرة ماله أو يفخر بقوته أو يختال بجاهه وسلطانه يذل ويستكين ويخضع لو ذهب المال والسلطان وقد تسوء حاله الى أبعد مدى حتى إنه قد يذل لمن كان عبداً له وخادما عنده وترغمه الحاجة على أن يصبح خادما بعد أن كان سيداً . فالعاقل من لا يغتر بأسباب العظمة والكبرياء ويعتبر بغيره ممن قلب لهم الدهر ظهر المجن وقد كانوا أكثر منه مالا وأشد قوة وماذا يمنع من أن يضام مثلهم . فاذا برئت نفسه من الكبرياء والفخر والخيلاء وابتعد عن الجدال والمزاح وسلم لسانه من الآفات التي سببها كرها بعد . وهي صفات غير طبيعية كما علمت فانه . لا يضره أن يكون سريع الغضب بطبيعته لأن هذه الأسباب هي التي تثير الغضب كما علمت مما تقدم .

فيجب على سريع الغضب بفطرته أن يمرن نفسه دائماً على التواضع ويذكرها بعظمة الخالق وحده ويفهمها بأنه مخلوق من ماء مهين وأنه صائر الى فناء وأنه سيكون عظاما بالية وترابا تطؤه الدواب بأرجلها . ومن كان هذا شأنه فلا ينبغي له أن يكون متكبراً يحقر خلق الله ويطفئ عليهم فاذا نزعت نفسه الى التواضع فانه لا يتألم لتلك الاعتبار التي يتألم منها المتكبرون وبهذا يدرأ عن نفسه غائلة سرعة الغضب الى أن تقل حدتها وتذهب ثورتها وهذا أهم ما تعالج به أنفس المستعدين

بفطرتهم للغضب . وأما من كانت سرعة الغضب ليست طبيعية له ولكنها اكتسبت بالعادة والمخالطة فانه يعالج بأمر .

أولا اجتناب صاحبة هؤلاء الاثرار والبعد عنهم . ثانيا اجتناب الاسباب المثيرة للغضب آنفا ثالثا . تعليمه أن ليس للانسان أن يغضب الا من أجل دينه أو نفسه أو عرضه أو ماله وما زاد على هذا فهو رذيلة مذكومة يجب على العاقل أن يتنبه لها ولا يذرهما تنساق عليه فتضيع سلطان العقل ويصبح الانسان عرضة للهلاك في الدنيا والآخرة فقد يدفعه غضبه الى الجناية على غيره وهو غير عالم لانه يصبح كالمجنون الذي لا يعي ما يقول ولا يضبط ما يفعل .

هذا الذي ذكرناه لك هو علاج الغضب قبل ثورته وطفغائه بالابتعاد عن أسبابه فراراً من الوقوع فيه فإذا نار الغضب فعلا وتملكت ثورته نفس الغضبان كان علاجه صعبا شاقا لانه يفعل في النفوس ما يذهلها وينسيها ما لها وما عليها من الحقوق والواجبات فيصدر عنها من الأقوال والأفعال ما لا يصدر الا عن المجانين كأن يضرب نفسه ضربا مبرحا حتى لقد يقتل نفسه وهو لا يدري ومن الناس من يمزق ثوبه ويلطم وجهه ويكسر الآنية الى غير ذلك فالحازم الشجاع هو الذي يضبط نفسه عند الغضب ولا يذره يستولى على مشاعره حتى ينطق نور عقله ويذهب سلطانة على البدن فيورده الغضب مورد الهلاك ويقضى على حياته المادية أو الأدبية فإذا نار الغضب وجب على المرء أن يذكر على الفور قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه آواه الله في كنفه وستر عليه برحمته وأدخله في محبته من اذا أعطى شكر واذا قدر غفر واذا غضب فتر » رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد . وقوله صلى الله عليه وسلم « مامن جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » رواه ابن ماجه . وقوله ﷺ « من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته » فانه اذا كان مؤمنا بالله ورسوله حقا ويعلم أن رسول الله ﷺ رؤوف رحيم بأئمة وأنه لا يقول الا ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم وان من خالفه لا يفلح أبداً فلا ريب أن نفسه تتأثر بهذا وينصرف عن غضبه فيسلم من نتائج الضارة به في دينه ودنياه .

ولقد أخبر رسول الله ﷺ وهو الصادق الامين بان من فتر غضبه — ضعف — حال ثورته فانه يكون في كنف الله وستره وأن الله تعالى يدخله في محبته وذلك أحسن الجزاء وأجزل العطاء فان من كان في محبة ربه فقد ظفر بسعادة الدنيا والآخرة وكان من الفائزين وهذا خير علاج تعالج به نفوس المؤمنين عند الغضب وأمضى سلاح تقاوم به ثورته وطفغائه فعلى كل مسلم أن يذكر أن طغيان الغضب مذموم في نظر الاسلام وأنه يترتب عليه آثار لا يقرها دينه ومضار تفضي بالمرء الى الشقاء الدنيوي والاخروي وأن مقاومته والوقوف به عند الحد المطلوب ممدوحة شرعا وعقلا وأن الله سيجزيه على هذا أحسن الجزاء وأن يشعر بذلك نفسه دائما كيما يذكره حال ثورة الغضب فيسكن غضبه .

ولقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن الغضب اذا نار عند المرء وكان واقفا فليجلس واذا كان جالسا فليضطجع وفي بعضها انه يلصق خده بالتراب والغرض من هذه الأحاديث ان

ينتقل الانسان من حالة إلى حالة ليتذكر فيما نهى النبي ﷺ عنه من سرعة الغضب وفيما رغب فيه من الحلم ومتى اتجه عقله إلى تلك الناحية فإن غضبه يفتت . وكذلك الغرض من إلصاق خده بالتراب فانه إذا أطاع قول رسول الله في ذلك فانه يسكن غضبه حتماً لأن ذلك يفضي به إلى التذكر فيما أعدت للقادرين على غضبهم من حسن الجزاء خصوصاً إذا روعى أن في إلصاق الخد بالتراب إرغاماً للنفس وإشعاراً لها بما هي صائرة اليه من القضاء وأن مآلها إلى التراب ومن كان هذا شأنه فانه لا ينبغي له أن يغضب ويطنى على خلق الله . فمن لم يعمل بذلك ولم يتأثر قلبه بالموعظة الدينية ولم يخش غضب الله القوي القاهر فوق عباده فلم يطع رسول الله ﷺ فليحذر عواقب الغضب الدنيوية فانك قد علمت أن الغضب اذا طغى قد يفضي بصاحبه إلى الهلاك اذ قد يحمله على أن ينال من خصم قوى فينتقم منه انتقاماً شديداً لا يقوى عليه . وقد يعرضه غضبه للسجن الطويل وتغريم المال الكثير وربما جرّ الغضب إلى جدوث العداوة والبغضاء بين قبيلتين فتكون نتيجة ذلك من أسوأ النتائج وذلك كما يقع بين بعض جهلة القرى المتجاورة من أهل زماننا في الأسواق فانه قد يتنازع أثنان أو أكثر من أهل بلدين مختلفين فيتصاربون فتحمل حمية الجاهلية من وراءهم من أهل البلدة إلى التعصب لمن كان من أهل بلدتهم فيجمعون جموعهم ويذهبون بعصيم الغليظة واسلحتهم ويهاجمون فجأة كل من يجدونه من أهل تلك البلدة في السوق بدون تفرقة بين برى وظالم وتكون نتيجة ذلك من أسوأ النتائج على هؤلاء الجهلة الفاسقين فانهم بعملهم هذا قد عرضوا أنفسهم للقصاص الدنيوى بالسجن وتغريم المال وغيرهما فضلاً عن عقاب الله الشديد الذى أعده لهم باعتدائهم على الأبرياء وقد أحدثوا بعملهم هذا العداوة والبغضاء بينهم وبين أهل البلدة الأخرى فأصبحوا أعداء بعد أن كانوا إخواناً وذلك شر مبین وداء وييل يجب محاربته والقضاء عليه بكل حزم وعزم

الشجاعة والجبن

الشجاعة شدة القلب عند البأس ويقال لها الجرأة بسكون الراء وفتحها والجرى الشجاع المقدم ففى صفة من صفات النفس تجعل الانسان على مواجهة الأخطار وتحمل الآلام بثبات . ذلك معناها فى اللغة أما فى نظر الدين والأخلاق فانه لا بد فيها مع ذلك من ضبط النفس عند الغضب . ولقد علمت بما تقدم أن للغضب ثلاث حالات إفراط . وتفریط . ووسط . فالإفراط هو طغيان الغضب بحيث

ينشأ عنه الاقدام على ما لا ينبغي من الرذائل التي شرحناها لك آنفا وهو تهور مذموم . والتفريط هو نقصان الغضب بحيث ينشأ عنه الاحجام عما ينبغي وهو الجبن المذموم . أما الوسط فهو الذي ينشأ عنه الاقدام حيث يجب الاقدام وهذه هي الشجاعة الممدوحة .

ومن هنا عرف بعضهم الشجاعة بأنها هيئة للقوة الغضبية متوسطة بين التهور والجبن فمن حملته هذه القوة على أن يقابل الأخطار بثبات لا يحمله على ذلك إلا الدفاع عن العرض أو المال أو النفس أو الدين أو الانتصار للفضيلة والقضاء على الرذيلة وخدمة المجتمع فانه يكون شجاعا مقداما ومن أحجم فهو الجبان .

أما إذا طغى عليه غضبه فجعله يبطش من أجل شهوته أو يتجاوز الحد المشروع في الدفاع عن الواجبات كأن يتقمم في سبيل الدفاع عنها من الأبرياء أو يبالغ في الانتقام من غير ضرورة فانه يكون متهوراً مذموماً .

يشير لذلك قول رسول الله ﷺ « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » رواه البخاري ومسلم . والصرعة بضم الصاد وفتح الراء هو الذي يصرع الناس كثيراً بقوته فليست الشجاعة مجرد الشدة عند البأس والقوة التي بها يصرع الناس وإنما الشجاعة هي أن يضبط نفسه عند الغضب فلا يذره يطفئ ويتجاوز حد الاعتدال

وبما ينبغي التنبيه له أن من لوازم الشجاعة أن يضبط الانسان نفسه في أمور . أولاً تقدير حال الذي يريد أن ينازله فلا يغفل تقدير عدده وعدته كما قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ثانياً . تقدير الأخطار التي تهدق به والظروف التي تحيط به ومن معه إن كان معه جمع . فلا يصح أن يخاطر ويلقى بنفسه إلى التهلكة . ثالثاً . أن يستعمل الوسائل الممكنة من غير القوة في الدفاع قبل القوة ومن لم يقدر كل هذه الأمور فانه يكون متهوراً لا شجاعاً لأن المقصود من الشجاعة إنما هو الوصول إلى دفع أذى المعتدين وردهم إلى الحق وهذا لا يكون إلا بقهرهم وإرغامهم . ومن لم يقدر هذه الأمور فانه يرغم ويقهر هو فتكون النتيجة عكسية ويزيد اعتداؤهم وطمعانهم بعد ذلك . فالشجاع الصحيح هو الذي يؤدي واجبه كاملاً فلا يرده الخوف والفرع عن الاقدام ولا يدفعه التهور إلى ما يقضى عليه بدون جدوى

أنواع الشجاعة

تنقسم الشجاعة إلى قسمين مادية كمنازلة الأعداء في ميادين القتال أو منازلة الخصوم الذين يحولون بينه وبين أغراضه . ونحو ذلك . وأدبية وهي أن يقول الحق الذي يعتقده مهما ترتب على ذلك من خطر عليه وألم بلحقه .

ولكل من النوعين أمثلة كثيرة يجعل ذكرها هنا لتكون عظة وذكري وعلاج لمن انحطت عنده درجة الغضب فلم يغضب حيث يجب الغضب . ولا ريب في أن خير مثال يحتذى في ذلك وأحسن أثر يقتفى فيه هو أثر رسول الله ﷺ وأصحابه فإنه صلى الله عليه وسلم هو السراج المذير الذي أرسله الله هادياً إلى أقوم السبل وأعدل الطرق . فمن اهتدى بهديه لن يضل . ومن اقتدى به وبأصحابه فقد استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

عن أنس رضي الله عنه قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحو الصوت فاستقبلهم النبي صلى الله عليه وسلم وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طاحنة وفي عنقه السيف وهو يقول لم تراعوا لم تراعوا ثم قال وجدناه يجرأ أو قال إنه البحر » يريد أن فرسه يجرى به كالبحر الذي يجرى

ذلك مثل من شجاعته ﷺ فإنه خرج بالليل يتلصص سبب الفزع قبل أن يخرج الناس ويواجه الخطر قبل أن يلقاه غيره مع أنه عليه الصلاة والسلام هو قائدهم الأعظم الذي يفدونه بأرواحهم وإمامهم الأكبر الذي يحوطونه بمهجهم وأفتدتهم ولكنه لم يتخذ من ذلك وقاية يحتسى خلفها فينام وهم يحرسونه ويقعد وهم يخدمونه ويدفعهم إلى مواطن الخطر وهو في مأمن منه . كلا إن شجاعة رسول الله فوق ذلك فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا . وأول من يقدم لنصرة دين الله وتأييده . ولقد كان عليه الصلاة والسلام يقول « والذي نفسي بيده لولا أن رجالاتنا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله ثم أحياء ثم أقتل ثم أحياء ثم أقتل ثم أحياء ثم أقتل » رواه البخاري . ذلك ما يقوله رسول الله ﷺ فهو لا يتخلف عن سرية تغزو — والسرية طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا — إلا لضرورة وهو أن كثيراً من المؤمنين القائم بينهم لا يسمحون له بالذهاب وحده . بل هم يحبون أن يكونوا معه وليس عنده من معدات الحرب ما تكفي لحملهم وتجهيزهم فهذا هو الذي يمنعه أن يذهب مع كل سرية ولو قليلة ولم يكن المانع له الخوف من الموت لأنه يتمنى أن يموت في سبيل الله عدة مرات حبا في أداء هذا الواجب المقدس ورغبة في الدفاع عن الحق . ولا غرو فإن نفسه الكريمة من أكمل الأنفس وأعظمها تقديراً للواجب ورغبة بأدائه فلا يمنعه عن ذلك ألم ولا يصده عنه فزع عليه الصلاة والسلام .

وروى عن جبير بن مطعم « أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين فعاقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى سمره فخطفت رداءه فوقف النبي صلى الله عليه وسلم فقال أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً » رواه البخاري

مقفله — بفتح الفاء — مرجعه من غزوة حنين أي تعلق به الناس وهو راجع من هذه الغزوة يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة فضويق رسول الله ﷺ والتجاء إلى سمره — بضم الميم — شجرة

عظيمة لها شوك جمعها سر كرجل وهي من شجر العضاة الآتي ذكره في الحديث فالعضاة اسم لكل شجرة عظيمة لها شوك وهو جمع واحد عضاة — بكسر العين —
ولقد صدق عليه الصلاة والسلام فانه أجود الناس وأشجعهم وأصدقهم بلا نزاع لذلك كان يدعو الله تعالى أن يقيه شر الجبن فكان يقول : اللهم اني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والحرم ،
رواه البخاري .

وروي عن أنس رضي الله عنه قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة فلم يكن معهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من التعب والجوع قال اللهم ان العيش عيش الآخرة . فاغفر للأنصار والمهاجرة ،
فقالوا عجيبين له .

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين لا يصدمن عن الدفاع عن دينهم حر ولا برد ولا يفتر عزائمهم جوع ولا عطش . ولا يرزعزع عقيدتهم تعب ولا نصب ولا تشيهم عن المشاق رفاهية ولا ترف . هؤلاء هم الذين رأوا رحمة نبيهم بهم وتأله من أجلهم فاجابوه بما يصاعف نفقته ويطمئنه على ايمانهم وشجاعتهم فقالوا انا بايعناك على القتال ومن ورائه الموت فلا يضيرنا بعد ذلك تعب ولا نصب ولا يؤذينا جوع ولا ألم وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين وعدهم الله بالنصر المبين وقد وفى الله تعالى لهم بما وعد فظفروا باعدائهم وكانوا أعز الناس وأعلامهم قدراً

روى عن سلمة رضي الله عنه قال « بايعت النبي ﷺ ثم عدلت الى ظل شجرة فلما خف الناس قال يا ابن الاكوع ألا تباع قال قلت قد بايعت يا رسول الله قال وأيضا فبايعته الثانية فقلت له يا أبا مسلم على أى شيء كنتم تباعون يومئذ قال على الموت .

فانظر الى أى حد انتهت شجاعة أصحاب رسول الله ﷺ وإلى أية درجة بلغ تقديسهم لدينهم واحترامهم لعقيدتهم الصحيحة . وتأمل كيف أنهم لم يبالوا بأرواحهم ينفقونها في سبيل الانتصار للفضيلة الا إن هؤلاء هم المفلحون الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه فاعزهم في الدنيا ولهم في الآخرة أحسن الجزاء .

ولقد أتى الله تعالى على من أوفى بعهده منهم في كتابه الكريم فقال (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)

روى عن أنس رضي الله عنه قال « غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر فقال يا رسول الله غبت عن أول قتال فانت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما صنعت فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال اللهم اني أعوذ بك مما صنع هؤلاء — يعني أصحابه — وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء — يعني المشركين — ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر اني أجد ريحها من دون أحد قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع قال أنس فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بريح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل

به فما عرفه أحد الا أخته بينانه قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه من المؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) « الى آخر الآية رواه البخارى .

فهذا مثال من أمثلة التضحية والثبات فلقد فات ذلك الرجل العظيم أن يكون مع أصحابه في قتال بدر فكان يعد ذلك فرصة عظيمة فاته اغتنامها وكان لذلك يتمنى أن تهىء له الفرص أن يشهد قتال المشركين فكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو أشهدنى الله ذلك لنكلت بهم وأبليت فبهم البلاء الحسن فاشهده الله قتال أحد وكان من سوء الحظ أن المسلمين في هذه المعركة قد انهزموا فالتفتهم أمر رسول الله ﷺ وتركهم مواقفهم التي أمرهم أن لا يبرحوها فلما رأهم على هذه الحالة لم تثن عزيمته ولم ينكث بعهده واعتذر الى الله من صنيع أصحابه وهزيمتهم وبرأ اليه من صنيع المشركين بمحاربة دينه ثم أقدم بضرب في المشركين فلقبه سعد بن معاذ أثناء ذلك وهو في هزيمته فقال له أنس ياسعد الجنة انى أجدر رجحا من دون أحد يريد تحريضه وأقسم له برب النضر — يعنى أباه أو ابنه لأنه كان له ولد صغير اسمه النضر — وسعد ينظر اليه والى صنعه بالمشركين وتالهم عليه فوصف حالته هذه لرسول الله ﷺ وقال له اننى مع كوفى معك ولى منزلة بين قومى لم أستطع أن أصنع مثل ما صنع أنس بن النضر .

ان ذلك العظيم كان يعاهد الله بقلب ممتلىء صدقا واخلاصا وكان يحدث عن شعور ملكه من جميع جهاته حتى أصبح القتل والقتال عنده من اللذات التي لا يستطيع المرء ان يضبط نفسه عند ثورتها لأنه مؤمن ايمانا صحيحا وجازم يقينا بان من وراء قتله فى سبيل الله حياة طيبة خالدة فى جنات النعيم حتى أصبح ذلك اعتقاداً محسوساً عنده . فلقد أقسم لسعد برب النضر انه يحصد ربح الجنة . ومثل هذا جدير بان يثنى الله عليه فى كتابه الكريم ويصفه بصدق العهد وتنفيذه على اكمل حال .

ولقد كانوا يتنافسون فى الدفاع عن دينهم ويتبارون فى القضاء على اعداء الله حتى ان الانصار من الاوس والخزرج كانوا اذا عملت احدى القبيلتين عملاً للدين لاتهمدأ الاخرى الا اذا قامت بمثله . روى عن عبد الله بن كعب بن مالك انه قال « مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الانصار . الاوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين لاتصنع الاوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء الا قالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ فى الاسلام فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها قال واذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الاوس مثل ذلك . ولقد منى المسلمون فى المدينة باليهود فكانوا من أشد الناس عداوة لهم وكان من رؤساء اليهود وأصحاب النفوذ فيهم كعب بن الاشرف وأبو رافع سلام بن ابى الحقيق فقتل رجل من الاوس كعب بن الاشرف فقالت الخزرج والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ ابداً فتذاكروا فيمن هو مثل كعب بن الاشرف فى عداوته للنبي ﷺ فعلموا انه ابو رافع فاستاذنوا النبي ﷺ فى قتله فاذن لهم « رواه الطبرى

هذه الروح ترشدك الى مقدار ما وصل اليه حب مرضاة رسول الله ﷺ من أنفس هؤلاء الاقوام وتبين لك كيف أنهم أصبحوا يتنافسون فى اقتحام المخاطر ويتبارون فى القضاء على اعداء

دينهم وخصومهم الذين يريدون بهم الهوان ويفقون في سبيل الإصلاح حتى لقد صار عندهم من أكبر الاماني وأعظم اللذات

وقد روى البخارى حديث أبى رافع كما روى حديث كعب بن الأشرف فارجع اليها إن شئت . هذه مثل مصفرة لما كان يعملها المسلمون في عهد رسول الله ﷺ ولقد كان مفروضا عليهم يومئذ أن يقوم الواحد منهم مقام عشرة في القتال فلا يجوز له أن ينهزم إلا إذا زاد العدد على ذلك قال تعالى (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفرا بانهم قوم لا يفقهون آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)

ومعنى الآية الكريمة أن الله تعالى العالم باحوال خلقه وما يلزمهم من التطور والانتقال بتطور الظروف واختلاف الوسائل شرع لهم ما يناسب كل حالة ولا تمها فالمسلمون في أول أمرهم كان عددهم قليلا بحيث لا يكاد يذكر الى جانب أعدائهم الكثيرين الذين يصدقون بهم من كل مكان فكان المناسب لهذه الحالة أن يكون لديهم من القوة المعنوية ومضاعفة العزيمة والثبات ما يجعل الواحد منهم عشرة من أعدائهم ففرض الله عليهم ذلك

ولما كان هذا شاقا في العادة ويكاد يكون غير ممكن هون الله عليهم الأمر فقال لهم ان الكافرين قوم لا يفقهون لانهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدركون معنى الفضيلة فهم كالانعام لجدير بالؤمنين أن يسوقهم كما تساق البهم ومع هذا فقد وعدهم بانهم ان امتثلوا يظفروا إذ قال لهم يغلبوا مائتين ففى الآية أمر لهم بان يثبت الواحد منهم لعشرة ووعد بان من فعل ذلك يغلب . هذا ما كان يناسبهم في أول أمرهم وهى حالة غير طبيعية فلما كثر عددهم وأصبحت حالتهم طبيعية اقتضت تشريعا مناسبا لها ففرض الله عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنتين من الكفار فقال لهم (آلآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) ومعنى هذا أن الظرف تغير ففى الحالة الأولى وأنتم فى قلة كنتم أقوى منكم وأنتم فى كثرة لانكم فى الحالة الأولى كنتم تعتمدون على القوة المعنوية وحدها . أما فى الحالة الثانية فقد أعجبكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا فلهذا تغير تعلق علم الله بتغير الظرف وتعلق بحالة الضعف هذه فشرع لكم ما يناسبها على أنكم على أى حال تمتازون بميزة لن تفارقكم وهى الايمان بالله ورسوله فلم تكونوا كغيركم مهما كانت الحالة طبيعية وليكن الواحد منكم كائنين من الكافرين . ومثال الحالة الأولى ما وقع لهم بيدرفان المسلمين كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون كانوا أكثر من الف ومع ذلك فقد كان موقع المشركين صالحا للقتال فقد كانوا فى الارض الصلبة التى بها الماء وكان المسلمون فى أرض رخوة تغوص فيها أقدامهم ولم يكن بها ماء . ولم يكونوا مستعدين تمام الاستعداد ولذلك كره بعضهم القتال ولكن شجعانهم قالوا لرسول الله ﷺ نحن معك كما تحب روى أن المقداد بن عمرو قال يا رسول الله امض لما أمرك الله تعالى فنحن معك حيث أحببت لانقول كما قال بنوا اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال أشيروا على أيها الناس يريد الانصار فقام سعد بن معاذ رضى الله عنها

فقال يا رسول الله إني أريد أن أجاهد في سبيل الله فأمرني رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ولا نكره أن تلقى بنا عدونا وإننا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركات الله تعالى فالتقى الجيشان وانهزم المشركون وهم كثر بتأييد الله تعالى إياهم وهم قلة

ومثال الحالة الثانية ما وقع لهم في حنين فانهم انصرفوا لما بعد فتح مكة وقد اختلط بجيشهم عدد كثير ممن أسلم حديثا بمكة فكان عددهم نحو إثني عشر ألف ولذا قال بهضهم نحن الآن لا تغلب من قلة فلما التقوا بعدوهم قابلهم الرماة بالسهم فاختل نظام الجيش وانهزموا في بادية الأمر ولكن النبي ﷺ نادى أصحاب البيعة فأقبلوا عليه واستجمعوا قوتهم فهزموا العدو مرة ثانية وفي ذلك يقول الله تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) الآية

وإنما نكتفي هنا بذكر ذلك التذلل لیسير مما كانت تنطوي عليه قلوب المسلمين من الشجاعة والغيرة على دينهم وكرامتهم إذ لا يسع المقام ذكر جانب عظيم مما كانوا يقومون به من التضحية في سبيل الدفاع عن الواجب وتأييد الحق فإن ذلك كان شأنهم دائما فلا تن لهم فيه عزيمة ولا تضعف لهم إرادة ولا تفتر لهم قوة يستعذبون الموت ويتمنون الشهادة في سبيل الله فمن أجل ذلك لا تزلزلهم الكوارث ولا تفزعهم العواصف فنصروا دين الله فنصرهم الله وحاربوا لأعلاء كلمته فاعلى الله قدرهم ودانت لهم رقاب أعدائهم وخضعت لقوتهم وشوكتهم الجبابرة وأصبحوا سادة أهل الدنيا ولهم في الآخرة أحسن الجزاء

أما شجاعتهم الأدبية وثباتهم على الحق فانك لا بد أن تلمسها مما ذكرناه لك لأنهم ما حملهم على حب الموت والرغبة في التضحية إلا الثبات على الدين الحق والإيمان بالله ورسوله، والاتصاف بالفضيلة والقضاء على الرذيلة ولهم في ذلك مواقف مشهورة لا تحصر وحوادث أصبحت مثلا للعالمين. ولا ريب في أن سيدهم في ذلك بل سيد الناس طرا هو مربيهم الأعظم ومرشدهم الأكبر سيدنا ومولانا محمد ﷺ فلقد جاء بتوحيد الله تعالى وأمره الله أن يدعو إليه ويصدق به بين قوم يدينون بعبادة الأوثان وهم لدينهم متعصبون ولا اعتقادهم الفاسد مقدسون قال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) لجمع ﷺ عشيرته ودعاهم إلى توحيد الله وقال لهم إني لا أغني عنكم من الله شيئا فقال له أبو لهب تمالك ألهذا جمعنا فأمرنا الله تعالى (تبت يدا أبي لهب) الآية ولما أظهر النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الحق لم يضطهدوه اضطهادا شديدا إلى أن عاب آلهم فذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له إنك تعبد الأصنام كما نعبد فر ابن أخيك أن لا يتعرض لآلتنا والأسلمه لنا نكفيك فقال لهم أبو طالب قولنا ولينا وردهم ردا جميلا ولكن النبي ﷺ مضى إلى الدعوة إلى ربه كما كان فرجعوا إليه مرة أخرى وأغلظوا له في القول فعظم عليه فراق قومه ولكن لم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن أخى هلا تركت آلهم فدمعت عين النبي ﷺ وتغير وجهه فقال له أبو طالب يا ابن أخى قل ما أحبيت فوالله لا أسلمك لشيء أبدا ثم رجعوا إلى أبي طالب مرة أخرى وقالوا إن كان ابن أخيك يريد الملك جعلناه ملكا علينا وإن كان يريد

المال جمعنا له من المال ما يرضيه فعرض ابو طالب الامر على النبي ﷺ فقال له يا عمي والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه . ثم مضى في الدعوة الى الله تعالى لا يهولنه امر ولا يفزععه هول يدعو الناس كما امره الله

ولقد كان صلى الله عليه وسلم معروفا بالثبات على الحق والتمسك بالصدق من نشته الاولى شهد له بذلك اعداؤه قبل اصدقائه فاقد اجتماع بعض صناديد اعدائه عند الوليد بن المغيرة وكان يلقب بريحانة قريش لما له من المنزلة الرفيعة في نفوسهم ليتشاوروا فيما يرمون به النبي ﷺ من الذم في الموسم حيث يجتمع الناس من جهات شتى لينفروهم عنه فقال لهم الوليد ماذا تقولون قالوا نقول عنه انه كاذب فقال وهل قال محمد كلمة كاذبة قط فقالوا نقول عنه انه مجنون فقال وهل عهدنا أرجح منه عقلا فقالوا نقول عنه انه شاعر فقال وهل قال محمد الشعر قط ثم قال لهم والله اني لاعلمكم بشعر الانس والجن ولقد سمعت من محمد آثما كلاما لا هو من كلام الانس ولا هو من كلام الجن فان له الخلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لشعر وان اسفله لمغدق وانه يعلم ولا يعلم عليه وانه يحطم ما تحته وكاد يسلم لولا تأثير ابى لب عليه وكان قد سمع اول سورة فصات ولما مضى ﷺ في تبليغ رسالة ربه اشتد ايداء المشركين اباه وتوفي عمه ابو طالب وزوجه السيدة خديجة في عام واحد فلم يبق له ناصر الا الله تعالى القاهر فوق عباده الحكيم الخبير فطفق المشركون يؤذونه بجميع صنوف الايداء وكان يعرض نفسه على القبائل لا يطالبهم بتصديقه وانما يطالبهم بحمايته من شدة الاضطهاد فكانوا يردونه اقيح رد ويسلطون عليه العبيد والصبيان يضربونه بالحجارة وقد اشتد الالم على نفسه الكريمة مرة فشكا الى الله تعالى فاحى الله اليه ان شئت طبقت لك عليهم الجبال فلم يرض بذلك وقال اني ارجو ان يخرج من اصلاهم من يوحد الله تعالى

وهذا هو شأن اولي العزم من المصلحين فانهم لم يأسوا من اصلاح الناس ولم يبالوا بما يصيبهم من الاذى والاضطهاد والموت في سبيل سعادة المجتمع ولقد كان صلى الله عليه وسلم يكاد يهاك حزنا واسفا على هؤلاء السفهاء الذين يتبعون شياطينهم واهواءهم فيشقون بذلك شقاء دائما مستمرا ويعذبون عليه عذابا اليما خالدًا حتى لقد قال الله تعالى له (فلعلك باخع نفسك على آثامهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا) — يخع نفسه اى قتلها غما —

وكذلك سائر الرسل صلوات الله عليهم فانهم جاهدوا بالحق وهم يعلمون ما يحيط بهم من المخاطر وما ينتظرهم من الاضطهاد لأن الله ارسلهم لاصلاح الناس وهدايتهم فليس لهم وظيفة سوى هذا في حياتهم فان عاشوا فانما يعيشون لها وان هلكوا فانما يهلكون في سبيلها فجزاهم الله عن الامم خير الجزاء

واما مثل شجاعة اصحاب رسول الله الادوية فكثيرة لأن الايمان الصحيح متى خالط القلوب اصبحت لاتعرف الا الحق وهان عليها في سبيله كل عذاب واضطهاد فانظر الى سيدنا عمر بن الخطاب وقت دخوله في الاسلام فانه ذهب ليقول رسول الله ﷺ فلما وصل الى النبي هده الله للاسلام فاسلم وكان المسلمون لا يستطيعون المجاهرة بالتوحيد خوفا من ايداء المشركين فقال له عمر السنا على الحق قال له نعم قال وما يمنعنا أن نجاهر به ونخرج من عنده يصيح لاله الا الله ويزار بها كما يزار الاسد فتجمع عليه المشركون

يضربونه ويضربهم ولا يثنيني عن المجاهرة بالحق . وكذلك ابو ذر الغفارى فانه كان بعيدا عن مكة وسمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فارسل أخاه بكشف الخبر فرجع اليه وأخبره فلم يشفه خبره وذهب بنفسه فنزل في المسجد فلقه سيدنا على رضى الله عنه فدعاه الى منزله واستمر على ذلك ثلاث ليال وفي الليلة الثالثة سأله عن حاجته فقال له انه يقصها عليه إن عاهده أن لا يذيعها ففعل فقال له أنا ادلك على رسول الله على أن تتبعني من بعد حتى إذا مارأيت أحدا من اعدائه وقفت اصلح نعلي فترجع ثم ذهب الى رسول الله ﷺ فعرض عليه التوحيد وقرأ عليه القرآن فادرك انه من عند الله فصدق به فلما خالط الايمان قلبه دفعه الى المجاهرة بالحق بدون خوف ولا وجل فذهب الى المسجد وكفار قريش موجودون وصاح قائلا لاله الا الله محمد رسول الله فاجتمع المشركون عليه وظلوا يضربونه حتى أغشى عليه فلما افاق أعادها ثانيا فعادوا إلى ضربه . وفي الثالثة قال بعضهم إنكم بذلك تقتلونه وإن قبيلته في طريقكم الى الشام فلا تترككم تمرون عليها بسلام فكفوا عنه . روى معنى كل ما تقدم البخارى وغيره من كتب السنة الصحيحة . فانظر كيف انه كان خائفا قبل الايمان بالله فلما آمن به تعالى لم يبال بالمجاهرة بالحق وعرض نفسه لخطر القتل حبا في الانتصار للفضيلة وحرصا على ظهور الدين . وامثال ذلك اكثر من أن يحصى

فمن كان جبانا لا يفار على عرضه ولا على نفسه ولا على دينه ولا يبالى بخذلان الحق وظهور الباطل فعليه أن يقتدى بهؤلاء الكرام البررة وأن يطالع سيرهم ويقف على اعمالهم فان ذلك خير علاج ينفعه ويهديه الى سواء السبيل

الجدل والمراء والخصومة

لاريب في أن هذه الامور الثلاثة من اقوى الأسباب التي تثير الغضب وتهيجه فأما الجدل فهو كل اعتراض على كلام الغير لاظهار ما فيه من خلل في لفظه أو في معناه أو فيها معا أو في قصد المتكلم كأن يقول له هذا الكلام حق ولكنك قصدت به باطلا . وأما المراء فهو في معنى الجدل الا أن المراء لا يتعلق به غرض سوى تحقير الغير واظهاره بمظهر الجاهل والظهور عليه بالفضل والعلم بخلاف الجدل فانه قد يتعلق به أيضا إظهار المذاهب وتقريرها وأما الخصومة فهي لجاح في الكلام يقصد منه الحصول على مال أو حق مقصود وهي تارة تكون من أول الامر وتارة تكون اعتراضا على

كلام الغير بخلاف المراء فانه لا بد أن يكون اعتراضا على كلام الغير . ولقد قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الاسلامية السمحة انما تنظر في احكامها الى المصلحة العامة دائما فلا تحرم حراما ولا تحل حلالا الا اذا كان في ذلك مصلحة عاجلة أو آجلة تعود على المجتمع والأفراد . فاذا علمت هذا فاعلم أن الجدل بالمعنى المذكور تارة يكون بمدوحا وتارة يكون مذموما . فالاول ما اذا كان في أمر يتعلق بالدين كأن نكلم أحدا بما يناقض أصلا من أصول الدين فإن اظهار ما في هذا الكلام من الخلل بالأدلة والبراهين وتقرير الحقيقة لازم والسكوت عنه أثم ولكن ينبغي لمن يتصدى لذلك أن يتأدب بآداب القرآن الكريم في جدله . قال تعالى (وجادلهم بالتى هي أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فالجدل في دين الله تعالى بالرفق والآداب ممدوح بدليل هاتين الآيتين إلا مع المعاندين والمكابرين فإن هؤلاء لا تنفعهم المجادلة بل اللازم حسم شرهم بالوسائل الأخرى . فينبغى لمن يجادل في الدين أن يجعل كل همه منصرفا الى انتقاء المعانى المقنعة . واختيار البراهين القاطعة . وإيس من الصواب أن يسب ويشتم أو يعتمد بمجادلة خصمه أمام الناس ليخرجه ويشهر به فإن ذلك قد يفضى به إلى العناد والتأدى على باطله . وفي ذلك ضرر أشد من ضرر السكوت فاذا أمكنه اقناع خصمه بالوسائل الحكيمة فذاك وإلا فعليه أن يتركه ويحذر الناس من شره بقدر ما يتاح له من الوسائل والأسباب .

وتارة يكون الجدل في أمر له مساس باصلاح حال الناس ونفعهم . فاذا جاء في كلام أحد ما ينافى ذلك وكان لكلامه تأثير في نفوس الناس ويخشى أن يعملوا برأيه فيصيبهم ضرر مادى أو أدبى . كان من الواجب دينا على من يعلم ذلك الخلل أن يجادله ويبين له مافى كلامه من الضعف ويشرح الآثار الضارة التى تترتب عليه بالبراهين المقنعة لأن الرفق بالناس ودفع الأذى عنهم واجب دينى على كل قادر عليه فمن لم يرحم الناس ويدفع عنهم الأذى بكل ما يستطيع كان آثما . والسنة الكريمة مملوءة بالحث على ذلك .

فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بينا رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك فأخذه فشكر الله له فغفر له » ومنه ما روى عنها أيضا من أن النبي ﷺ قال « الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله » فقد جعل عاينه الصلاة والسلام إزالة الأذى من الإيمان . وروى الطبرانى أن النبي ﷺ قال « من أخرج من طريق المسلمين شيئا يؤذيهم كتب الله له به حسنة ومن كتب له عنده حسنة أدخله بها الجنة » الى غير ذلك من الأحاديث

فذلك حالتان يكون الجدل فيهما ممدوحا بل هو لازم ضرورى لما يترتب عليه من الدفاع عن الدين ودفع الضرر عن المسلمين . على أن كثيراً من الناس يستغفزه الغضب فلا يحسن الجدل في ذلك فبدلاً من أن يأتى بالبراهين القاطعة لاثبات ما يريد يجعل همه فى السب والشتم والتشهير ظناً منه أن فى ذلك نواباً وعليه أجراً . وذلك أضر على الدين وعلى جماعة المسلمين من صاحب الرأى الفاسد

الذى يحاول الرد عليه لأن المسألة تنتقل من اقناع بالبرهان الى تهاثر وسباب يحمل الخصم على المقابلة بالمثل ويضيق الحق بين المتشاكسين .

فالواجب على من يتصدى للجدل في هاتين الحالتين أن يجادل بالتي هي أحسن كما قدمنا وأن يتبع آداب الجدل والمناظرة في ذلك وأن يسلك سبيل الحكمة في الاقناع حتى يظفر بغرضه .
وتارة يكون الجدل في أمر من أمور الدنيا التي لا تتعلق لها بالمصالح العامة كأن يتنازعان في أن هذا الزرع أحسن من ذاك أو أن فلانا أعلم من الآخر أو أنه أتقى منه أو أن هذا البناء لايعمر طويلا إلى غير ذلك .

والمراء في هذا وأمثاله مذموم كل الذم لأنه فضلا عن كونه مثارا للغضب فإنه مضیعة للوقت بدون جدوى .

وتارة يكون الجدل في العلوم الآلية . كالنحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق . والجدل في ذلك إن كان الغرض منه الوصول الى حقيقة عليية وكان بالأدب والحسنى فهو مدوح . أما إن كان الغرض منه إظهار نقص في غيره وتجهيله فهو مذموم ينبغي تركه لأنه يثير الغضب ويولد الضغائن والاحقاد من غير ضرورة لذلك سواء أكان محقاً أم مبطلا . ولهذا قال رسول الله ﷺ « أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وبيت في أعلا الجنة لمن حسن خلقه » رواه أبو داود وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « ماض قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » من حديث أبي أمامة ونقل عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه قال . لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث . لا تتعلمه لتقارى به ولا لتباهى به ولا لتراى به . ولا تتركه حياء من طلبه ولا زهادة فيه ولا رضى بالجهل منه وأما الخصومة وهي أن يكثر في القول ويلج فيه كي يظهر على خصمه وينال منه ما يقصده فهي على ثلاثة أقسام .

الأول : أن يفعل ذلك لأجل أن يصل الى حق له يحججه غيره بدون ضرر به أو نكايته وهذه مدوحة لأن الحصول على الحقوق مطلوب شرعا إلا اذا تجاوز عنها راضيا .

الثاني : أن يفعل ذلك ليقطع حق الغير بالباطل فيأتى برخرف القول ويستعمل العبارات التي لا يستطيع خصمه اقامه فيها ويرددها كلها وجد لذلك سبيلا . ولا ريب في أنها مذمومة كل الذم سواء كانت شديدة أو خفيفة إلا أن الخصومة الشديدة في الباطل أكبر جرماً وأشد إثمًا أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم « أبغض الرجال الى الله تعالى الألد الخصم والألد الشديد في خصومته قال تعالى (وهو ألد الخصام) » أى شديد الخصامة في الباطل .

الثالث : أن لا يخاصم لاقطاع حق الغير ولكن قدحجب اليه الخصومة ومشاكسة الناس فلا ينفك يخاصم في القليل والكثير وفيما ينبغي التنازع فيه وما لا ينبغي وما يمكن أن يحصل عليه بدون الخاصة وما لا يمكن وهذه وإن كانت مذمومة إلا أنها أقل من الأول ذمًا .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله عبداً سمحا اذا باع

سمعا اذا اشترى سمعا اذا اقتضى» رواه البخارى وابن ماجه . وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنها قال قال رسول الله ﷺ « دخل رجل الجنة بمباحته قاضيا ومقتضيا » رواه أحمد . وعن حذيفة رضى الله عنه قال « أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا فقال له ماذا عملت فى الدنيا قال (ولا يكتُمون الله حديثا) قال يارب آتبنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى » رواه مسلم .

وأمثال ذلك كثير فى سنة خير الأنام عاياه الصلاة والسلام . وإذا كانت الخصومة مذمومة الا اذا كان الغرض منها الحصول على حق يمجده الغير فما بال الناس الذين أصبحوا لاهم لهم الا خالق المشاكل وتدمير وسائل الخصومة ورفع الدعاوى الباطلة وترويحها بالوكلاء والمحامين وابتكار الأساليب الباطلة والوسائل المزورة للحصول على أموال الناس بالباطل . أو الانتقام من الأبرياء والنكاية بهم الا ان هؤلاء شر عباد الله تعالى وأنعمهم حظا وأحطهم عند الله قيمة وقدرآ . فلهم على ذلك أسوأ الجزاء وأشد العذاب وإن يضيع عند الله حق اغتصبوه بالحجة الباطلة بل لا بد أن يرد الله لصاحبه بأن يخلف عليه فى الدنيا ويجعل له عليه سلطانا فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون . فليحذر المسلمون من الخصومات التى لاتدفعهم اليها الضرورة وليعلموا أن الله شديد العقاب .

المزاح

تقدم لك القول فى أن المزاح من الأسباب التى تثير الغضب وتهيج . فمن كان سريع الغضب بطبعه أو بالتعود فانه ينبغى له أن يعالج نفسه باجتنب الأسباب المثيرة للغضب ومنها المزاح وهو قول أو عمل ماعساه أن يضحك وهو أيضا قسمان مدح ومذموم . فالممدوح ما كان الغرض منه تسليه النفس عما يساورها من الموم والأحزان التى تضر بالبدن وتؤثر على العقل فتشغله عن التفكير فى العلم النافع وتدير أموره على وجه صحيح فاذا كان المزاح ينتج ذلك فهو لازم لأنه فى هذه الحالة قد يفضى بالحزين إلى الصبر والسلوى فسيان المصيبة . ويفضى بالكسول إلى النشاط وبالعليل إلى الصحة ولكن يشترط فيه أن لا يخرج عن حدود الأدب والدين .

والمذموم هو ما ترتبت عليه آثار سيئة كأن يخرج عن حد اللياقة فيثير غضبا قد يجر إلى مالا تحمد عقباه أو يخرج عن الآداب الدينية كأن يكشف المازح سوءاته ليضحك غيره أو يشوه صورته تشويها يسقط بالكرامة أو يؤذى غيره بالسب وشتم الوالدين أو بالضرب تحت ستار المزاح أو يهين ذا مروءة ليضحك الناس عليه أو يضع وقته في اللهو واللعب وكثرة الضحك أو يتخذه حرفة دائمة يصرف بها الناس عن العمل ويعلمهم السخرية والاستهزاء ببعضهم إلى غير ذلك مما هو مشاهد بين الجيلة الذين لا هم لهم إلا مرضاة الشهوات وتضييع الأوقات سدى وأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

ومن ذلك تعلم أن الشريعة الإسلامية دائما تنظر في أحكامها إلى مصالح الناس ودفع الشرور والمفاسد فما يجيىء بفائدة ويدفع ضرراً فاتها تحبذه . وما يجيىء بعكس ذلك فانه مذموم في نظرها لانتقده ولا ترضاه .

وللنوعين من المزاح الممدوح والمذموم أمثلة وقعت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلندكر هنا طرفاً منها ليكون نبراساً يهتدى بهديه المازحون ويعتبر به المسلمون فانه ان يستقيم لنا حال ولا تنهنا لنا عيشة الا اذا اقتدينا برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلكنا سبيلهم التي اعزهم الله بسلوكها ورضى عنهم في الدنيا والآخرة باتباعها وعدم الخروج عنها . وتلك هي سبيل الدين القيم الذي شرعه الله لنا ووصانا به كي نفوز بالسعادة في دنيانا وآخرتنا وإنه بنا لرموف رحيم .

فن أمثلة المزاح الممدوح مارواه الترمذي مرسلًا قال « أتت النبي ﷺ عجوز فقالت لها ان تدخل الجنة عجوز فكت فقال انك لست بعجوز يومئذ قال الله تعالى (انا أنشأناهن لإنشاء فجعلناهن أبكاراً) » .

وما رواه ابن أبي الدنيا قال « جاءت امرأة الى النبي ﷺ يقال لها أم أيمن فقالت له إن زوجي يدعوك قال ومن هو أهو الذي بعينه بياض قالت ما بعينه بياض قال بلى بعينه بياض فقالت لا والله فقال صلى الله عليه وسلم مامن أحد الا وبعينه بياض وأراد به البياض المحيط بالحدقة » وفي هذا الحديث دلالة صريحة على أن الخلف يتبع الاعتقاد لأن المرأة أقسمت مرتين على نفى البياض الذي تعتقد أنه غير موجود ولم ينكر عليها النبي ﷺ ذلك .

وما رواه أبو داود والترمذي وصححه قال « جاءت امرأة الى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله احملني على بعير فقال بل نحملك على ابن البعير فقالت ما أصنع به إنه لا يحملني فقال صلى الله عليه وسلم مامن بعير الا وهو ابن بعير » .

وما رواه أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت كان عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجشت به فقلت لسودة كلى فقالت لأجبه فقالت والله لئأ كلن أو لألطنن به وجهك فقالت ماأنا بذائقته فأخذت يدي من الصحيفة شيئاً منه فاططخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها فخفض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبته

لستفيد من فتاوتك، من الصفحة شيئاً فسحت به وجهي وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يضحك.

وما رواه ابن بكار من أن الضحاك بن أبي سفيان الكلبي « كان رجلاً دميماً قبيحاً فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء — يريد عائشة — وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب . أفلا أنزل لك عن إحداهما فتزوجها وعائشة جالسة تسمع فقالت أهي أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن وأكرم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه لأنه كان دميماً — قبيح الوجه —

وما رواه ابن ماجه والحاكم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة لصبيب أنا كل التمر وأنت رمد فقال إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فبسم صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه . فهذه طائفة من الأحاديث النبوية ترشد إلى نوع المزاح الممدوح وتشير إلى أن النكات الأدبية التي لا تخش فيها ولا كذب ممدوحة لأن فيها تطيباً للنفس ومسرة من غير أن يترتب عليها ضرر أو تخالف قواعد الدين .

ومن أمثلة المزاح المذموم ما رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه قال « غزونا مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعاب فكسع أنصارياً فغضب الأنصارى غضباً شديداً حتى تداعوا وقال الأنصارى يالأنصار وقال المهاجري يالمهاجرين فخرج النبي ﷺ فقال ما بال دعوى أهل الجاهلية ثم قال ماشأنهم فأخبر بكسمة المهاجري للأنصارى قال فقال النبي ﷺ دعوها فانها خبيثة . وقال عبد الله بن أبي بن سلول أقد تداعوا علينا لن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعراس فقال عمر ألا تقتل يا رسول الله هذا الخبيث — لعبد الله — فقال النبي ﷺ لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه .»

وتلك الغزوة هي غزوة المريسيع كانت في سنة ست من الهجرة ومعنى ثاب معه ناس من المهاجرين خرج معه واستماله في ذلك على غير حقيقة لأن ثاب معناه رجع واللعب في معناه أقوال أظهرها المزاح والكسع هو أن تضرب يدك أو رجلك دبر انسان .

ولا ريب في أن ذلك المزاح يكون مزاحاً ثقيلاً موجباً لثوران الغضب . وتداعوا معناه انضموا إلى قبائلهم واستغاث كل واحد منهما بقومه بتلك الكلمة وهي يال فلان فلان وهي دعوى الجاهلية التي نهى عنها رسول الله ﷺ فانهم كانوا يستعملونها لاستفزاز قبائلهم وحماهم على القتال بدون تثبت فيعتدون على الأبرياء ويسفكون الدماء طلباً وعدواناً فلذا نهى النبي ﷺ عنها ومن أجاب تلك الدعوى كان آثماً يستحق العقوبة والتعذير .

وفي هذا الحديث عظة نافعة للزعماء الذين يريدون الإصلاح ويعملون على جمع قلوب الناس فانه يجب على الواحد منهم أن يقضى عما عساه أن يفرط من بعض أفراد أصحابه ويتجاوز عن عقوبته إذا ترتب على تلك العقوبة ما قد ينفر الناس منه ويحول بينهم وبين المصلحة التي يريدونها . لهم فافعله

رسول الله أحسن مثال لهؤلاء في تقدير الأمور وضبط النفس عند الغضب. كيف لا ورسول الله هو سيد العالمين وخير المرشدين عليه الصلاة والسلام

فذلك مثال للمزاح المذموم الذي قد يكون من شر الأسباب المثيرة للغضب الضار خصوصا ما كان منه بالضرب والشتم واللعن فإن المازح لا يأمن أن تنطلق يده الى موضع من بدن المضروب لا يحتمل فيه الضرب او الايذاء كما في الحديث فيهبج غضبه لذلك . او ينطلق لسانه بكلمة قاسية لا يطبق احتمالها فيثور غضبه وبالجملة ينبغي اجتناب المزاح المثير للغضب الضار بالكرامة قال سعيد ابن العاص لابنه يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدني فيجتري عليك

السخرية والاستهزاء

ومن الاسباب التي تثير الغضب وتولد الضغائن والاحقاد بين الناس السخرية والاستهزاء ومعناها احتقار الناس وإهانتهم والتنبيه على عيوبهم على وجه يضحك فمن فعل ذلك مع غيره بدون رضائه فقد اقترف إنما وار تكب محرما لأنه خالف قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) فالسخرية بالناس بدون رضاهم سواء كانوا رجالا أو نساء نهى الله تعالى عنها. وإنما نص على النساء لأن القوم هم جماعة الرجال لغة . قال زهير أقوم آل حصن أم نساء - يريد أهم رجال أم نساء - وقد يراد بالقوم الذكور والاناث تغليبا كما قيل في قوم عاد وثمود

والسخرية تارة تكون بالمحاكاة في القول والفعل وتارة تكون بالإشارة والإيماء وهي لا تجوز على أى حال إلا اذا سخر بمن يرضى وفي هذه الحالة تكون مزاحا لها حكم المزاح فان كان الغرض منها تسلية النفس وادخال السرور عليها بدون أن تخرج عن حدود الدين وآدابه في القول والفعل كانت جائزة والا كانت محرمة كما تقدم بيانه في المزاح

فعلى المؤمنين أن يتمسكوا بدينهم فيما عظم من الأمور أو صغر ولقد أباح الله لهم من لذات الحياة وشهواتها ما فيه الكفاية فليس من الحكمة أن تدفعهم شهواتهم النفسية وجهم في الضحك واللعب الى السخرية ببعضهم فان ذلك يولد العداوة والبغضاء . ويثير الضغائن والاحقاد . والمؤمنون اخوة ينبغي لهم أن يعيشوا في صفاء وسعادة فاذا أبت عليهم شهواتهم في الضحك واللعب الا ذلك فعليهم

أن لا يخرجوا عن حدود اللياقة والادب في القول والفعل بل يقتصروا على ما فيه المسرة والنشاط بلا مبالغة ولا افراط والله يهدي من يشاء الى سواء الصراط

الفحش وبذاءة اللسان واللعن

ومن الاسباب المثيرة للغضب إطلاق العنان للسان فلا يبالي ان يسب هذا ويعلن ذلك وينال من إخوانه في غيبتهم وينم عليهم ويشي بهم بدون أن يحسب لأحد حسابا أو يخشى على عمله عقابا ولا ريب أن ذلك من شر الاسباب التي تولد الاحقاد والضغائن وتثير غضب الناس على من يفعل ذلك فيجب على كل عاقل أن يضبط لسانه دائما ولا يعوده على السب واللعن حتى مع خادمه وولده الصغير ودوابه وأنعامه فانه إذا تعود ذلك فلا يأمن أن ينال من يقابله بمثل قوله أو يزيد عليه فيثور غضبه ويطغى ويسوقه الى ما لا تحمد عقباه وكذلك يجب عليه أن يصون لسانه عن الفحش والغيبة والنميمة فانه اذا جرى لسانه بفحش القول ذهب حياؤه ومن ذهب حياؤه كان شرا ووبالا على الناس لا يبالي أن ينال من أعراضهم وكرامتهم وذلك من أكبر الاسباب التي تثير الضغينة وتيجع الغضب ومثل ذلك الغيبة والنميمة فان المغتاب والنمام يغرس بعمله هذا بذور العداوة والبغضاء ويؤسس أركان الحقد والضغينة وذلك من أكبر الاسباب التي تثير غضب الناس وسخطهم ومحاربة بعضهم بعضا بالقول والفعل من أجل ذلك نهت الشريعة الاسلامية عن كل هذه الامور نهيا شديدا واليك البيان

حد الفحش هو أن يعبر عن الامور المستقبحة شرعا وعقلا وطبعيا بالعبارات الصريحة كما يفعله الرعاع وفاسدوا الاخلاق حين يتكلمون عن الوقاع وما يتعلق به بعبارات الفحش التي يستقذروها الطبع السليم ويستلذها أرباب الطباع الفاسدة . والفاحش هو الذي يتكلم بالفحش ويأتى الفاحشة أما البذي فهو الذي ينطق بالفحش ولم يأتى الفاحشة وقد يكون صادقا فيما يقول وقد نهت الشريعة الاسلامية عن النطق بالفحش كما نهت عن اتيان الفاحشة وان كانت عقوبة الثانية أشد وأثما اعظم أما ما ورد من الاحاديث في النهي عن ذلك فكثير منه ما رواه الترمذي قال قال رسول الله ﷺ «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي» . فالطعان هو الذي يظعن في أعراض الناس بالذم والاعتياب ونحو ذلك واللعان هو الذي يكثر لعن الناس كما سيأتي بيانه وقد علمت معنى

الفاحش والبذي وفي هذا الحديث زجر شديد لمن كان له قلب يتأثر بموعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام قد نفى الايمان عن يتصف بهذه الصفات ومهما قيل في تأويل هذا وامثاله بان المراد منه نفى الايمان الكامل فلن يجديه ذلك نفعا لأن نقص الايمان مصيبة لا يعدها مصيبة فان ناقص الايمان الذي لا يبالي باقتراف الجرائم والآثام لا يزال في مقت الله وغضبه وسينال جزاء ما اكتسب من الاثم عذابا اليما

ومن ذلك ما رواه الحاكم وغيره من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إياكم والفحش فان الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش » ولقد علمت حد الفحش فهو إسم للردائل التي يأبأها الطبع السليم وينكرها العقل وينهى عنها الشرع . أما التفحش فهو تعمد الفحش .
ومن ذلك ما رواه أحمد وابن أبي الدنيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء » وإن أحسن الناس إسلاما أحاسنهم أخلاقا »

ذلك بعض ما قاله رسولنا الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام وتلك هي تعاليمه الرشيدة ونواهيها الحكيمة . فهو قد نفى الايمان عن الفاحش والبذي وقال إن الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء . ذلك لأن الاسلام دين الفضائل ومكارم الأخلاق فهو منزّه عن كل ما يأباه الطبع السليم وتأذى منه الفضيلة . فهلا يزدجر أولئك المفسدون الذين يستعذبون الفحش ويستلذون الفاحشة والألفاظ المسيهجة بدون حياء من الله والناس . وهلا يعتبر هؤلاء الذين يأتون الفاحشة ويفعلون المنكر بذلك الزجر الشديد . فإذا كان التعبير بألفاظ الفحش جريمة يستحق صاحبها نفى الايمان عنه فما ظنك بمن يأتي الفاحشة ويفعل الموبقات . ألا إن اثمه لكبير وإن عقابه لشديد . فله الويل والثبور يوم يقوم الناس لرب العالمين .

اللعن

معنى اللعن الطرد من رحمة الله تعالى والابعاد من حضرته . فعنى لعن الله الظالم أبعد الله من حضرته وطرده من عموم رحمته . ولا ريب في أن ذلك حكم على الله تعالى بأنه فعل ذلك . فينبغي أن يقع فيه ماورد عن الشرع وإلا كان جرأة شديدة على الله تعالى لا يقرها الدين . والذي ورد في الشرع هو اللعنة بالأوصاف العامة كلجنة الله تعالى على الكافرين أو الظالمين أو الفاسقين ونحو ذلك أما لعن الأشخاص فإنه لا يجوز إلا إذا ثبت أنهم ماتوا كفاراً كأبي جهل وأبي لهب ونحوهم ممن ظهر لنا أنه مات كافراً . فإذا قال قائل لعن الله فلانا اليهودي أو النصراني أو المجوسي فإنه لا يجوز لأنه لا يدري مصيره ولا يعرف ماأراد الله له في نهاية أمره فقد يتوب الله عليه كما حصل مع أبي سفيان وغيره ممن لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فنزل قول الله تعالى (ليس لك من الأمر شيء) الآية فكف رسول الله ﷺ عن لعنهم .

روى أحمد والبخارى وغيرهم من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد « اللهم العن أباسفيان . اللهم العن الحارث بن هشام . اللهم العن سهل بن عمرو . اللهم العن صفوان بن أمية . فنزلت الآية (ليس لك من الأمر شيء) الخ » فتيب عليهم كلهم . وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يلعن الذين قتلوا أصحاب - بئر معونة - فلما نزلت هذه الآية ترك ذلك .

فاذا كان لا يجوز لعن فلان الكافر . فكذلك لا يجوز لعن فلان الفاسق أو الظالم من باب أولى . نعم يجوز ذلك بالأوصاف العامة كأن يقول لعنة الله على الزناة أو على الكاذبين أو على النمامين ونحو ذلك .

على أنه لا يجوز لعن الأشخاص الذين ثبت موتهم على الكفر إذا ترتب على لعنهم إساءة أحد من أهلهم وأقاربهم من المسلمين أو ترتب عليه فتنة أو كان سبياً في ضرر اللاعن أو نحو ذلك .

روى « أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مرتبة وهو يريد الطائف فقال أبو بكر هذا قبر رجل كان غائباً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطمع للطعام وأضرب للسهم من أبي قحافة . فقال أبو بكر يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام فقال ﷺ أ كفف عن أبي بكر فأنصرف ثم أقبل على أبي بكر فقال يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فمعموا فانكم إذا خصصتم غضب الأبناء للأباء فكف الناس عن ذلك » رواه أبو داود . وقال ﷺ « لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء » رواه الترمذي وأحمد والطبراني .

ومثل صيغة اللعن في الحظر ما يدل على معناه كقوله غضب الله عليه أو أحرقه بنار جهنم أو طرده من رحمته ونحو ذلك مما يفيد معنى الإبعاد من حضرة الله والطرده من رحمته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تلعنوا بلعنة الله ولا بغضه ولا بجهنم » أي لا يلعن بعضكم بعضاً سواء أ كان ذلك بلفظ اللعن كأن يقول لعن الله فلانا أو هو مأمون أم لا يجعله الله من أهل النار أو غضب الله عليه ونحو ذلك كما ذكرنا .

وكما لا يجوز لعن الإنسان كذلك لا يجوز لعن الحيوان والجماد . قال أنس رضي الله عنه كان رجل يسير مع النبي ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون » وكان ذلك إنكاراً من النبي صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الرجل والحديث رواه ابن أبي الدنيا .

وبعد فإن ذلك من محاسن الإسلام ومكارمه التي لا تقف عند حد فهو يعلم الناس الأدب ويأمرهم بصيانة ألسنتهم عن كل ماثير غضباً أو يولد حقداً أو يؤذى حياً أو يهين ميتاً إلا ما كان ضرورياً يستدعيه الزجر والتأديب . فحذر بذلك الدين الحنيف أن يظل قائماً إلى يوم الدين . وحرام على المسلمين أن يخرجوا عن آدابه ويتكفروا حرمانه ويتخطوا حدوده . حرام عليهم أن ينهزم دينهم عن كل رذيلة ولكنهم فيها ينجسون . ويأمرهم بكل فضيلة ولكنهم عنها مبعدون ثم بعد ذلك تراهم يشكون ذلاً ويسامون خسفاً ولو أنهم اتبعوا ما أمرهم دينهم ونهاهم عنه لكانوا أسعد خلق الله أجمعين وأوفرهم حظاً يوم يبعثون . نسأل الله تعالى صلاحاً وتوفيقاً

الغيبة

وما يورث العداوة والبغضاء ويولد الضغائن والاحقاد ويثير الغضب وينزع الثقة تفشى الغيبة في الناس فان المغتاب لا يأمن من نقل غيبته الى من نال منه وفي ذلك منار الغضب وطغيانه ووقوع ما يترتب عليه من المفاسد والشرور

حد الغيبة

اما حد الغيبة فهو أن تذكر عيوب أخيك في غيبته سواء بلغه ذلك أو لم يبلغه وسواء كانت تلك العيوب متعلقة بالصفات الخلقية كأن يقول عنه إنه جبان أو بخيل أو ظالم أو كاذب أو نحو ذلك. أو كانت متعلقة بالصفات الخلقة كأن يقول عنه إنه أعور أو أعرج أو مشوه الوجه أو قبيح أو نحو ذلك. أو كانت متعلقة بالعرض كأن يقول أنه زان لائط ونحو ذلك

أنواع الغيبة

تنقسم الغيبة الى أربعة أقسام الأول : ذكر تلك العيوب صراحة باللسان الثاني : التلويح وهو يتناول الإشارة باليد ونحوها والإشارة بالعين ويسمى غمزا قال تعالى (وإذا مروا بهم يتغامزون) الثالث : الكتابة كأن يكتب العبارات الدالة على العيوب للعامة أو للخاصة ولو لواحد . الرابع : المحاكاة بأن يمثل الصفة التي تعيب غيره كأن يتعارج أو يفتح فاه أو يتناوم الى غير هذا من كل ما يؤذى

حكم الغيبة

لا خلاف في أن الغيبة حرام بجميع أنواعها المذكورة انما الخلاف فيما اذا كانت كبيرة أو صغيرة والذي يطمئن له القلب من ذلك أنها ان كانت متعلقة بالعرض ونسبة الغير للفسق والفجور فانها تكون من أشد الكبائر بلا مرأه . وان كانت متعلقة بالصفات التي لا يتأذى بها الناس كثيرا كصفات البدن والملابس ونحو ذلك فانها تكون صغيرة مالم يؤد ذلك الى ثوران الغضب المفضي الى الشرور والمصائب كأن يعلم أن من يغتابه بذلك يتأذى منه كثيرا فيتور غضبه وتولد منه الشحناء والعداوة والبغضاء فاذا أفضت الغيبة الى ذلك تكون كبيرة وكذلك اذا كانت سببا في انطلاق لسانه بالغيبة واستلذاذه اياها فتصبح عادة له ويتنقل منها الى الخوض في الاعراض فانها تكون كبيرة حينئذ

ومن هذا تعلم أن الغيبة شر من جميع نواحيها سواء أكانت مما يتأذى منه الناس كثيرا أم قليلا فعلى المسلمين أن يحتبوا وأن لا يصرفوا أوقاتهم في ذكر مساوى بعضهم بعضا وأن لا يجعلوا أعراضهم وعيوبهم تسلية يتفكحون بها في أنديتهم ومجالسهم فإن من سهل عليه أن يغتاب اخوانه فليعلم أن غيره يسهل عليه أن يغتابه وفي ذلك من الشر والفساد وضعف الثقة وتولد الحقد والضغينة مالا يخفى على عاقل . فالبعد عن الغيبة بجميع انواعها لازم على كل حال ولا فرق بين أن تكون العيوب التي يغتاب بها غيره موجودة فيه أولا على التحقيق بدليل ما روى أن النبي ﷺ قال « هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله اعلم قال ذكرك اخاك بما يكره قيل أرايت ان كان في اخي ما اقول قال ان كان فيه ما تقول فقد اغتبته وان لم يكن فيه فقد بهته » رواه مسلم وغيره ومعنى بهته بالبهتان واقتربت عليه الباطل ومن يفعل ذلك فقد باء باثم عظيم . نعم تجوز غيبة المجاهر بالفسق لأن المجاهر يعلن عن ذنوبه وينشرها بين الملأ فليس له حق التأذى من ذكرها ورميها بها . وكما تحرم غيبة المسلم كذلك تحرم غيبة الكتابي روى ابن حبان في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سمع يهوديا أو نصرانيا قله النار » ومعنى سمعه أسمعه ما يؤذيه

وحكم من يستمع الغيبة وهو قادر على منعها كحكم المغتاب لأنه شريك له في الجريمة باغترابه عليها بالانصات له

كفارة الغيبة

اعلم أن الذنوب المتعلقة بحقوق العباد لا تمحى الا اذا عفوا عنها او ردت لهم مظالمهم فنأخذ من الناس مالا ظلما وعدوانا فان جريمته لا تمحى الا اذا رد لهم مالمهم الذي أخذه منهم أو عفوا عنه وكذلك من اعتدى على أعراضهم بالقول أو الفعل فان جريمته لا تمحى الا اذا عفوا عنه وهكذا . ولا ريب في ان الغيبة جناية على الناس وهم غافلون فكفارتهما أن يتحلل عن اغتابه ويطلب منه العفو ولكن ورد أن من اغتاب أحدا ولم يبلغه الغيبة فإنه يكفيه أن يتوب ويندم ويستغفر لمن اغتابه وقد اختار هذا جمهور من العلماء وهو حسن وفيه سعة ورحمة للناس فعلى المغتابين أن يتوبوا ويندموا ويستغفروا لآخوانهم الذين نالوا منهم لعل الله يرحمهم ويغفر لهم انه غفور رحيم

المواضع التي تجوز فيها الغيبة

قد علمت مما تقدم أن الشريعة الاسلامية انما تعنى في احكامها بالمصلحة العامة فاذا ترتب على الغيبة مصلحة او درء مفسدة كانت لازمة واذا ترتب عليها امر جائز كانت جائزة ويمكن ضبط الاول في خمسة أمور . الاول المظلوم الذي يريد أن يشكو لمن يرفع عنه مظلمته فله أن يذكر عيب ظالمه الذي يحتاج اليه في بيان حقه بشرط أن يقول كذبا . الثاني الاستعانة على تغيير المنكر لمن يظن أن له قدرة على ازالته فان له أن يقول إن فلانا ظلمي في كذا وكذا فهل يجوز له ذلك مثلا . الرابع تحذير المستفتي أن يقول للمفتي إن فلانا ظلمي في كذا وكذا فهل يجوز له ذلك مثلا . الرابع تحذير

المسلمين من شرمن يتصدى للزعامة في أمورهم العامة او من يتوقف عليه القضاء في مصالحهم أو من يتصدى لافنائهم وتعليمهم العلم كالزعماء في الشؤون الدينية او الدنيوية والشهود والمدرسين ونحو ذلك من يشترط فيهم الامانة والاتصاف بمكارم الأخلاق ليكونوا قدوة للناس فان هؤلاء يصح أن يبين ما فيهم من العيوب والنقائص التي لا تناسب وظائفهم . الخامس أن يتجاهر بفسقه كما تقدم اما الثاني وهو ما تجوز الغيبة فيه فهو التعريف بالالفاظ الدالة على نقص في الجسم كالأعور والاقارع وان امكن التعريف بغيرها والاولى أن يعرف بغيرها ان سهل ذلك

أدلة تحريم الغيبة

ورد النهى عن الغيبة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قال تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا) أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) ولا ريب في أن ذلك غاية في الشدة ونهاية في الزجر فقد مثلت الآية المغتاب أشنع تشبيل وشبهته بمن يأكل لحم أخيه الانسان وهو ميت واستنكرت صدور مثل هذا من الانسان إشارة إلى أنه لا يليق أن يصدر منه ذلك من حيث كونه إنسانا وأنه لو عرض عليه أن يأكل لحم أخيه ميتا لأبى فما باله يرضى باغتيابه ونظم عرضه ونشر غيبه الذي هو شبيه بأكل لحمه ميتا . فأى قلب لا يتأثر بعد ذلك الزجر الشديد الذي تقشعر لسماعه الجلود وتهتز القلوب فكيف عن الاغتياب وينتهى عما يوجب الضغائن والاحقاد بين المؤمنين . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » رواه مسلم أى حرام على أن يهتك عرض أخيه المسلم ويعتدى عليه بالقول أو الفعل .

وكفى بذلك زاجراً لمن يتدبر معنى قول الله وقول رسوله ويأتمر بما أمره الدين الخفيف وينتهى عما نهاه عنه فان الله تعالى حرم الخوض في أعراض الناس واغتيابهم بذكر عيوبهم وهم لإخوان في هذه الحياة

وليس من الانسانية في شيء أن يعتدى الأخ على عرض أخيه فيتهك بالقول أو العمل . ولا من المروءة أن يتخذ من دين أخيه وكرامته محلاً للعب واللهو والتسلية في المجالس والمحافل . ولا من الأدب والشهامة أن يدفعه الغضب أو الحقد الى ذكر مساوى أخيه والتشهير به فان كل ذلك يتنافى معنى الاخاء الذى جعله الله بين عباده المؤمنين حيث قال (إنما المؤمنون إخوة)

فواجب على المسلمين أن يمتنعوا الغيبة باجتناب أسبابها وهى كثيرة . منها الخصومات التي تزين للناس الطعن في بعضهم بغير حق . ومنها الانتقام الذى تدفع اليه ثورة الغضب . ومنها مجاملة الناس وموافقهم على الاغتياب .

ولا ريب في أن من يجامل غيره بالنيل من أعراض الناس وموافقهم على ما يسبب له الشقاء الدائم في الدار الآخرة ويثير الغضب ويولد العداوة بينه وبين الناس في دار الدنيا لم يأت من أتعس

الاشقياء وأحطهم قدراً وأذناهم شجاعة لأنه يعرض نفسه للهلكة مجرد مجاملة غيره وذلك هو الحسرات المبين .

ومنها أن ينسب إلى شخص عيباً من العيوب فيريد أن يرى نفسه بنسبة ذلك العيب إلى غيره وذلك من شر الموبقات . ومنها الحسد وهو يدفع الحاسد إلى تنقيص قدر المحسود والنيل من عرضه ودينه كي يصغر في أعين الناس وذلك شر عظيم قال تعالى (إن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً)

إفشاء السر

ومما يثير الغضب ويولد الضغائن والأحقاد في نفوس الناس ويرفع الثقة من بينهم إفشاء السر فإن الذي يودع عند الآخر سرّاً يأمنه عليه لا بد أن يثور غضبه إذا علم أنه أفشاه ولم يصنه ويسعى في أن ينال منه ما يتشقى به فيثور غضب الآخر لذلك . وعند ذلك لا تؤمن غائلة الغضب ولا يتقى شره الذي ينهض فتكون العاقبة شراً ووبالاً من جميع الجهات . وكفى بذلك ذماً لإفشاء السر لأن فيه إيذاء يدفع إلى إهاجة الغضب وتوليد العداوة والبغضاء . وهو خيانة مذمومة في نظر الشريعة الإسلامية كل الذم

قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء قيل هذا غدرة فلان بن فلان » رواه مسلم وغيره . وقال عليه الصلاة والسلام « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له »

ومعنى الحديث الأول أن الخائن الذي يخون الناس ويفدر بهم فلا يبالي أن يفشي أسرارهم . ويخون عهودهم . أو يغرر بهم في أمورهم سيفتنح يوم القيامة ويشهر به ويعلن عن خيائته مبالغة في النكابة به وتشديداً في عقوبته وذلك هو الحسرات المبين .

ومعنى الحديث الثاني أن الخائن الذي لا يؤمن على أسرار الناس وأموالهم وأعراضهم ويفدر بهم في عهودهم لا إيمان عنده ولا دين له .

ولقد علمت بما مضى أن نفى الإيمان في هذه الحالة يدل على عظم الجريمة وشديتها فانه مهما قيل في تأويله من أن المراد نفى الإيمان الكامل فكفى بذلك تحذيراً وزجراً . وكفى مرتكبها ذماً بأنه ناقص الإيمان يستحق عليه سوء العقاب .

أما الآثار السيئة التي تترتب على إفشاء السر . فمنها ما هو متعلق بالفرد . ومنها ما هو متعلق بالجماعة ولا ريب في أن ضرر الثاني أشد وخطره أعظم . ومثاله ما إذا كان متعلقاً بتدبير شعب أو إصلاح جيش . أو تنفيذ نظام . أو تربية فريق من الناس . أو نحو ذلك فإفشاء السر في مثل هذا خيانة عظيمة وجناية كبيرة في نظر الشريعة الإسلامية يستحق صاحبها نفى الإيمان عنه وله على ذلك عذاب الجحيم .

وكذلك ما يتعلق بإفشاء سر الفرد فإنه شديد الضرر لأنه قد ينقصه في نظر قومه . وقد يقطع عليه منفعة عظيمة . وقد يثير عليه غضب من يؤذيه إبذاء شديداً . وقد يعرضه للخطر الشديد الى غير ذلك . ولهذا حذر العقلاء من ان يسر الانسان الى غيره ما يخشى من اذاعته على نفسه او كرامته .

نقل جرير بن حمزة الزيات عن علي رضي الله عنه انه قال .

لا تفش سرك الا اليك * فان لكل نصيح نصيحا
فاني رايت غواة الرجال * لا يتركون اديما صحيحا

ومعناه انك ان رأيت ان لك نصيحا تفضي اليه بسرك فان له ايضاً نصيحا يفضي اليه بما اسررت به اليه فلا تظن انه يظل مكتوما عنده . ومعنى البيت الثاني ظاهر

فاذا كان في إفشاء السر ضرر يعود على الفرد كما بينا فإنه يكون كبيرة شديدة وجريمة من شر الجرائم . اما اذا لم يكن فيه ذلك الضرر فإنه يكون لوم في الطبع وسوء ادب ويكون حراما اذا اعتاده . فخره ذلك الاعتياد الى افشاء السر الذي يترتب عليه الاضرار .

روى ان معاوية بن ابي سفيان اسر الى الوليد ابن اخيه عتبة بن ابي سفيان حديثا فقال الوليد لايه عتبة يا ابا ان امير المؤمنين اسر الى حديثا . وما اراه بطوى عنك ما بسطه الى غيرك فقال عتبة لابنه فلا تحدثني به فان من كتم سره كان الخيار له ومن افشاء كان الخيار عليه . قال قلت يا ابا وان هذا يدخل بين الرجل وبين ايه . قال لا والله يا بني ولكن احب ان لا تزال لسانك بأحاديث السر . قال الوليد فأنيت معاوية لحديثه بما جرى . فقال يا وليد اعتقك اخي من رق الخطأ . اخرج به ابن ابى الدنيا في الصمت .

هذا ولا يلزم ان يقول من يتحدث الى غيره بسر إن حديثي سر فلا تذعه فإنه متى حدثك أحد بحديث خاص بينك وبينه كان ذلك الحديث امانة لا يصح لك اذاعته الا باذنه . قال رسول الله ﷺ « مطلق الحديث بينكم امانة » رواه ابن ابى الدنيا باسناد جيد . وقال رسول الله ﷺ « اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فبى امانة » رواه ابو داود والترمذي .

ومعناها انه اذا أسر في اثناء الحديث ولو بالتفاته فإنه يكون امانة . وكذلك اذا لم يسر بشيء فإنه يكون امانة ايضا .

تلك هي آداب الشريعة الاسلامية واخلاقيها فمن ذا الذي لا يتأدب بتلك الآداب . ولا يتخلق بهذه الاخلاق التي من تمسك بها سعد في دنياه وآخرته وكان عند الله من المقربين .

الامانة والوفاء بالوعد

الامانة هي الحقوق المتعلقة بالذم لافرق فيها بين أن تكون من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده سواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية فهي تشمل الامانة على الاموال والاعراض والانفس والاسرار والتكاليف الشرعية ونحو ذلك وضدها الخيانة فمن احتفظ بتلك الحقوق يسمى أميناً ومن أضاعها ولم يؤدها كما هي يسمى خائناً. فمن أذاع سرا اتّمن عليه كان خائناً كما تقدم ومن كتمه كان أميناً ومن اتّمن على أن ينقل حديثاً لغيره فقله محرّفاً أو أخبر بخلافه كان خائناً وهكذا. ومنه تعلم أن الامانة قد تتناول بعض افراد الصدق كما تتناول كتم السر وان الخيانة قد تتناول بعض افراد الكذب كما تتناول اذاعة السر

ومعنى الوعد هو ان يلزم الانسان نفسه بامر لغيره سواء كان ذلك الامر مادياً أو ادبياً كأن يعدّه بمال أو هبة أو صلة أو ضمان أو كفالة أو معونة في عمل أو تعليمه علماً أو نحو ذلك يقال وعده بخير وبشر فيستعمل وعده في الأمرين اذا ذكرهما معه فاذا حذف لفظ خير ولفظ شر يقال في الخير وعده وفي الشر أو وعد وخلف الوعد. ضرب من ضروب الكذب وفرد من افراد المزدولة

ولا ريب في أنه هو والخيانة من صفات النفس الذميمة التي تورث العداوة والبغضاء وتولد الضغائن والأحقاد وتكون منارا للغضب وما يترتب عليه من الشرور خصوصاً اذا كان الوعد متعلقاً بمصلحة هامة مادية كانت أو أدبية ويترتب على خلفه فوات تلك المصلحة أو كانت الامانة على عرض أو مال نجانها من اتّمن عليها فان الخيانة والخلف في هذه الحالة يكونان من شر الأمور المثيرة للغضب ويكون الخلف أو الخائن في هذه الحالة ظالماً مستولاً عما يترتب على خيانتة من النتائج ويكون للمعتدى عليه الحق في أن يغضب لكن الى الحد الذي يباه فيما مضى فلا يجوز له أن يحمل طغيان الغضب على الافراط في الانتقام وتخطي الحدود المشروعة للجزاء على ان الناس اذا أدبوا أنفسهم ووقفوا بها عند الشهوات المعقولة وطهروها من تلك الصفات المردولة لأنسوا شر تلك الشرور واكتفوا غوائلها

فمن أجل ذلك نهى الدين الحنيف عن خلف الوعد والخيانة وحث على الوفاء والامانة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا اتّمن خان » رواه البخارى ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم « اربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها. اذا اتّمن خان واذا حدث كذب واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » رواه البخارى وغيره

ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه أن الحيانة والغدر وخلف الوعد والفجر في الخاصة ليس من خلائق المؤمنين ولا من شيمة المسلمين إذ لا يليق أن يكون من خلائقهم ما يؤذي الناس ويورث العداوة والبغضاء ويرفع الثقة من بينهم لأن دينهم الذي يدبنون به يأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل .

ولا ريب في أن صفة الأمانة والوفاء والعدل في الخصومة من أجل الفضائل التي يقدرها العقل في كل زمان ومكان . وعلى العكس من ذلك أضدادها فانها من الرذائل الممقوتة التي يترتب عليها أسوأ الآثار بين الناس . فمن كان أميناً وفيّاً عادلاً كان جديراً بأن يكون من جماعة المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . ومن كان خائناً مخلفاً وعده غادراً فاجراً كان منافقاً لا يصح أن ينتسب إلى الاسلام ولا يليق به أن يكون من جماعة المؤمنين لذلك قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) والوفاء والایفاء هو القيام بما يقتضيه العهد . والعقد هو العهد الموثق سواء كان متعلقاً بمال أو أمانة أو بيع وشراء أو تجارة أو زراعة أو صناعة . أو كان متعلقاً بالعقود التي عقدها الله على عباده وألزمها إياهم من التكاليف كما تقدم في تعريف الأمانة . وقال تعالى (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على صيغة الأمر صراحة كي تشعر النفوس بما للأمانة من الخطورة والمنزلة . فمن خانها فقد خالف أمر ربه القوي المتين . ومن خالف ربه فقد عرض نفسه لسخطه . ومن سخط الله عليه فهو من الهالكين

منافع الوفاء والأمانة

ومضار الخلف والحيانة

لا شك أن للوفاء والأمانة أحسن الآثار بين الجماعة والأفراد . فإذا اشتهرت أمة بالوفاء بوعداها والمحافظة على ما توثقن عليه من الأسرار والأموال والأنفس كانت محبوبة من جميع الأمم موقوفة بها عندهم كريمة عليهم . عيوبها مستورة وذلاتها مغفورة . وإن احتاجت لمعونة مدت إليها الأيدي من كل مكان وإن أصابها مكروه تألم لها الناس في كل ناحية . وبذلك تعيش سعيدة مكرمة عزيزة الجانب رفيعة القدر والمنزلة بين سائر الشعوب . أما إذا اشتهرت بخلف الوعد والحيانة فإن الناس ينصرفون عنها ويخافون شرها وإن كان لها أعوان ينفضون من حولها فلا تجد من أحد معونة ولا عطفاً ولا ترى مناصرة ولا برأ . فتكسد تجارتها وتبور صناعتها وتقف حركتها وتصبح منعزلة عن الشعوب والأمم وذلك هو الخسران المبين .

وكذلك الأفراد فإن الأمين الوفي له أحسن المسكاة في نفوس الناس وأجل المنزلة عندهم . يثق به الجميع في كل شأن من شئونهم فتتسع أمامه سبل العمل وتفتح له أبواب الخير فينفع نفسه

وأتمه ويؤدى وظيفته في هذه الحياة كاملة . فمن أمنه الناس على أموالهم فأدأها اليهم فانهم لا يمنعونها عنه إذا احتاج اليها ولا يبخلون عليه إذا وقع في ضائقة . ومن أمنه الناس على أعراضهم فحفظها كان قد يسر عندهم يحفظون له أجل الذكري . ويحلونه من أنفسهم أكرم محل . ومن أمنه الناس على أسرارهم فلم يفشها كان كريما عليهم كبيرا في أعينهم ذا سلطان على أنفسهم . أما الذى يقول ويكذب ويعد ويخلف ويخون إذا ائتمن فانه يكون محتقرا عندهم ساقط المروءة في أعينهم لا يصدق له قول ولا يعا له برأى ولا يؤمن على مال ولا يساعد على عمل . وذلك منتهى الذلة والهوان

ما يغتفر من خلف الوعد

لا يغتفر في نظر الدين شئ من خلف الوعد حتى في الأمور التي يتسامح الناس فيها عادة . ولا يترتب عليها ضرر لأحد كأن يعده ليسير معه إلى نزهة مباحة أو يقضى معه عملا لا يتوقف على وجوده معه أو يحضر معه لتناول طعامه ونحو هذا . لأن ذلك وإن لم يكن كبيرة من الكبائر كما تقدم إلا أنه يجر إلى غيره بحكم العادة والميراث . فمن استسهل الخلف في الأمور الصغيرة فانه لا يستصعبه في عظام الأمور فضلا عما في ذلك من ضعف الثقة به وظهوره بين الناس بمظهر الخلف للوعد . وفي ذلك ضرر يلحقه هو إن لم يلحق غيره . وإنما الذى يغتفر من خلف الوعد في نظر الدين هو أن يعد وهو ينوى الوفاء فاذا عرض ظرف قسرى اضطره للخلف لم يكن آثما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الخلف أن يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى بما وعد به ولكن الخلف أن يعد الرجل ومن نيته أن لا يفى » أخرجه أبو يعلى في مسنده . مثلاً إذا استدان شخص من آخر ديناً - اقتضته ضرورة من ضروريات حياته - إلى أجل مسمى وهو ينوى أن يقضيه عند ذلك الأجل ثم اضطر إلى عدم الوفاء لعارض قهرى وعذر شرعى فانه لا يكون مخلفاً في هذه الحالة . نعم ينبغى للمرء أن يتحرى في أموره ويجهد نفسه بالتسك بوسائل الوفاء فان عجز بعد ذلك لم يكن مقصراً . وكذلك لا يجوز له أن يبذر في أموال الناس ثم يعجز بعد ذلك ويقول إنه لم يكن مخلفاً . فانه في مثل هذه الحالة يأثم إثمين . إثم التبذير في أموال الناس . وإثم خلف الوعد . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثال لأتمته بالأخلاق الفاضلة في غيرهم من الأمم فقال لهم مرة مامعناه إن رجلاً من كان قبلهم من الأمم ذهب إلى آخر ليستدين منه مائة دينار إلى أجل - كي يتجر فيها ويردها له - فقال له انتنى بكفيل فقال له لا كفيل لى سوى الله تعالى . فقال له كفى بالله كفيلاً ولكن انتنى بشاهد . فقال له الله شهيد . فقال له كفى بالله شهيداً وأعطاء المائة التى طلبها فأخذها وسافر بها في البحر إلى جهة واتجر فيها فربح مائة مثلاً ولما أراد العودة إلى بلده لم يجد مركباً يعود عليها وقد حل أجل الدين فاضطرب الرجل خوفاً من خلف الموعد ولم يستطع الصبر بعد أن جعل الله كفيلاً وشهيداً عليه ولم يجد وسيلة يتخلص بها من ذلك الموقف سوى أن يضحى بربحه ويحمله قرباناً لله تعالى فأتى بخشبة وحفرها - كصندوق - ووضع فيها

المائة التي ربحها ووضع معها رقعة مكتوب فيها . اللهم انك كفلتني عند فلان وأنا أستحي أن لا أفي بما كفلتني فيه فمذا ربحي أقدمه لك قربانا وقذف بالخشب في الماء وبقي ينتظر سفينة يعود فيها ولما فات موعد الأجل خرج صاحب الدين يتفقد السفن لعله يجد سفينة تحمل صاحبه فعثر على قطعة خشب على وجه الماء فحملها لينتفع بها وقودا فلما كسرهما وجد فيها دينه ووجد معه الرقعة التي كتبها المدين فأخذه وبعد أيام حضر المدين ومعه المائة دينار التي اقترضها فدق عليه الباب فلما رآه اعتذر اليه وذكر له السبب الذي ألجأه الى خلف الموعد وأراد أن يعطيه المائة فقال له ان الذي كفلك قد سد عنك فأخذها وانصرف . روى معناه البخاري

ذلك مثل من أمثلة خالف الموعد التي يغتفرها الدين فان الرجل كان يتوى الوفاء وقد بذل كل مجهوده في سبيل ذلك ولما أعيتة الحيل أراد أن يقدم قربانا لله تعالى وهو أن يضحي بكل ما ربحه ولكن الله سبحانه وتعالى الذي يحب الصادقين من عباده الأمانة والأوفياء لم يضع عليه ماله ولم يفوته ثمرة مجوده فحفظ له ماله في الدنيا بطريقة غريبة في العادة كي يزيد ايمانا بأنه لا يضيع أجر العاملين في الدنيا ولهم في الآخرة أحسن الجزاء . نعم لا يجوز للانسان أن يخاطر بماله مخاطرة ذلك الرجل وأن يقذفه في الماء لأن الدين الاسلامي نهى عن ذلك . وانما كان ذلك جائزا في الأمم السابقة لانهم كانوا يقدمون القرابين على مثل هذه الصورة . وانما ذكرناه لك لتعرف منه مقدار حرص الرجل على الوفاء ومقدار رغبته في أن لا يخلف الموعد ومع كونه اضطر الى المخالفة قسراً فان نفسه لم تطمئن لذلك فحذف بربحه في الماء قربانا لله تعالى وفي ذلك من الغيرة على الوفاء مالا مزيد بعده .

الصدق والكذب

واذ قد علمت أن الصدق قد يكون فرداً من أفراد الامانة وأن الكذب يشمل خلف الوعد . فلنذكر لك تعريفهما هنا وأحكام كل منهما

فأما الصدق فهو أن يقول الانسان الحق الذي يعرفه ويعتقده فاذا أخبر عن شيء فينبغي أن يكون عارفاً له معتقداً أنه هو بدون زيادة ولا نقصان فاذا بالغ في قوله مبالغة تغير المعنى وتلبس على السامع كان كاذبا . وكذلك اذا تعمد أن يوجز فيه إيجازا مخلا أو يحذف منه شيئا يذهب بالغرض المقصود منه فانه يكون كاذبا فيه . واذا أخبر الانسان خبرا عن شيء وهو يعتقد أنه هو فظهر خلافه فانه لا إثم عليه وان كان في ظاهره كذبا . ولقد بينا لك في مبحث الغيبة أن ما يفيد معنى القول يكون في حكمه فكذلك هنا ينبغي أن تعلم أن الإشارة بالعين أو الرأس أو اليد أو العزم ونحو ذلك مما يفيد معنى القول له حكم القول في الصدق والكذب .

وعما لا ريب فيه أن الصدق من الفضائل الضرورية للمجتمع الانساني وافراده . فلو لا الصدق ما كان الانسان . وذلك لأمور :

منها أن غاية الإنسان في حياته إنما هي الوصول الى السعادة وقد علمت أن السعادة الحقيقية هي البقاء بلا فناء والنعم بلا زوال وذلك لا يكون الا في الدار الآخرة فلا بد حينئذ من نقل أخبار تلك الدار صادقة ولا بد من معرفة الوسائل التي يتوصل بها الانسان الى تلك السعادة على وجه صحيح. وذلك لا يكون الا بالنقل عن الله سبحانه وتعالى بواسطة رسله فاذا لم يوجد الصدق لا يمكن الوصول الى السعادة بل لا يمكن الوصول الى معرفة ما عند الله تعالى لعدم صدق الرسل حينئذ وهم الذين يوحى اليهم باخبار ما غاب عنا .

ومنها أن حياة المجتمع الانساني من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الافراد والجماعات . فلا يمكن أن يعيش الانسان منفردا مستقلا عن غيره في جميع شئونه بل لا بد له من الاستعانة بغيره والاستناد عليه في كثير من ضروريات الحياة كما تقدم . واذا فلا بد له من التفاهم مع ذلك الغير على أساس صحيح كي يتيسر له أن يتعاون معه . فاذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذي هو أهم شيء في هذه الحياة .

ومنها أن الميزة التي امتاز بها الانسان عن الحيوان إنما هي العلم والمعرفة . والعلم مشتمل على فضايها ونظريات . فاذا نقلت كاذبة انقلب العلم جهلا وانعدمت الحقائق العلمية وفقد الانسان ميزته التي امتاز بها عن الحيوان .

ومنها أن الانسان محتاج للغة والاعتبار باخبار الامم الماضية والحاضرة ولا سبيل الى معرفة ذلك الا بالصدق .

وبالحله فان الصدق ضروري لحياة الفرد والمجتمع فلا يمكن أن يعيش الانسان من حيث هو انسان بدون الصدق فهو فضيلة من أجل الفضائل وأعظمها أثراً وعكسه الكذب فانه رذيلة من أسوأ الرذائل وأقبحها أثراً ويتنوع الكذب الى أنواع :

أولاً . ما كان منه متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وهذا من أشد الكبائر وأقبح الجرائم التي تضر المجتمع الانساني وتقضى على العدل والنظام فان الذي يقول الزور ليقطع حقوق عباد الله أو يثلمهم في أعراضهم ويؤذيهم في أنفسهم فهو أضر على نفسه وعلى المجتمع الانساني من كل ما يضر الانسانية ويؤلمها وقد عرض بذلك نفسه لغضب الله تعالى ومقته وكان سبياً في بث الفوضى واغراء المجرمين على اقرار الجرائم فينالون من أعراض الناس وأموالهم ما يشتهون وهم آمنون من العقوبة لانه يجد شاهد الزور يساعده على الافلات منها وفي ذلك خطر عظيم وبلاء شديد .

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وكان متكئاً ألا أنبئكم بالكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ثم قعد فقال ألا وقول الزور » متفق عليه . ولا فرق بين أن يكون ذلك الحق الذي اعتدى عليه كبيراً أو صغيراً أو سواء أكد شهادته باليمين أولاً . إلا أنه اذا كان الحق كبيراً وكان تأثيره على نفس المعتدى عليه شديداً أو كان مؤكداً بالخلف بالله تعالى فانه يكون أشد جرماً وأعظم إثماً . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف على يمين ليقطع بها مال امرئ مسلم نقي الله وهو عليه غضبان قيل يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً قال وإن كان سواك من أراك »

رواه الشافعي في مسنده بهذا اللفظ . وقد روى من عدة طرق بأسانيد جيدة مع اختلاف في بعض الالفاظ . وفي هذه الصورة أمور ثلاثة . الأول الكذب وهو تعدد الاخبار عن الشيء بخلافه كما تقدم . الثاني الجرأة على الله تعالى باستعمال اسمه الكريم كذبا . الثالث الاعتداء على حق الغير . ولا ريب في ان اجتماع هذه الثلاثة من اكبر الكبائر .

ثانيا ما كان منه غير متعلق بحقوق العباد ولكنه أكد باليمين . وفي هذا خلاف والصحيح أنه كبيرة أيضا لما فيه من الجرأة على الله تعالى والاستهانة بالكذب . يشير لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما حلف حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة في قلبه الى يوم القيامة » رواه الترمذي والحاكم وصححه

ومعناه أنه اذا أدخل في يمينه شيئا من الكذب والاخبار عن الشيء بخلافه أثر ذلك في قلبه كما تؤثر النكتة السوداء . وكذلك شأن الجرائم والموبقات فلها تراكم على القلب نكتا سوداء فتكون كالطابع فلا يؤدي وظيفته كما سبق بيان ذلك . وهذا يدل على ان الحلف بالله كذبا كبيرة من الكبائر .

ثالثا ما كان منه غير متعلق بحق الغير ولم يؤكد باليمين . وهذا تارة يقصد به المزاح والسخرية . وظاهر الاحاديث يقضى بانه كبيرة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويل للذي يحدث بكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له » رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وغيرهم . لان الذي يفعل ذلك أولا قد استهان بامر الكذب واستلذه فلا يلبث مثل هذا أن يكون الكذب عادة له ويصبح من الكاذبين الذين يتكرر كذبهم ولا يصدق لهم احد حديثا حتى ولو كان صادقا . والشرعة الاسلامية حريصة دائما على الاحتياط في درء الفساد . فن اجل ذلك كرر رسول الله كلمة الويل التي تدل على العذاب والسخط في شأن من يكذب ليضحك الناس .

رابعا ما كان منه متعلقا بالله ورسوله كأن يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاذبا متعمدا وهذا من أغشى الكبائر واشدها خطرا على الدين وليس لهذا جزاء سوى ان يتبوأ مقعده من النار وكل هذه الامور ليست من خلائق الاسلام لانه انما يدعو الى الفضائل وينهى عن الرذائل فطبيعته الكريمة تأبى سقاسف الامور ونحرم الاضرار بالناس . وقضاياها تنطوي على ما فيه مصلحة المجتمع الانساني وبقاؤه وتمية العمران . لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل خصلة يطبع او يطوى عليها المسلم الا الخيانة والكذب » رواه ابن ابي الدنيا وغيره

ولا ريب ان خلف الوعد داخل في الكذب والفدر والفجر في المحاصمة داخل في الخيانة . وقد علمت أن هذه من صفات المنافق لامن صفات المؤمنين . قالت عائشة رضي الله عنها ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من اصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم انه قد أحدث لله عز وجل منها توبة « رواه احمد وابن ابي الدنيا . وقال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم - وكررها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات -

فقال أبو ذر رضي الله عنه خابوا وخسروا من هم يا رسول الله قال المسبل إزاره . والمنان الذي لا يعطى شيئا إلا منه والمنفق سلعته بالخلف الفاجر . والمسبل إزاره هو الذي يجر أثوابه غفرا واختيالا . والاسلام ينهى الناس عن ذلك كما سيأتى في موضعه . أما المنان فهو ساقط المروءة لأنه إن أحسن إلى فقير أصاع إحسانه بالمنّ عليه وربما تأذى بالمنّ عليه أكثر من منفعة بما أخذ منه وإن أعان صاحباً أو جامل أحداً بمعروف أخجله بمنه ونقص عليه عيشه . وكدر صفوه وقد يكون ضرر ذلك عليه أكبر مما استفاده منه . وأما المنفق سلعته بالخلف الفاجر فهو الذي يئنه لك أولاً

فذلك هي آداب الدين العالية وأخلاقه الكريمة لحرام على المسلمين أن لا يتسكوا بها ويحرصوا على تنفيذها فإن من تمسك بها لا بد أن يحيا سعيدا ويظفر برضوان الله تعالى ويفوز بالنعيم الدائم والملك المقيم في جنات النعيم

ما يعنى عنه من الكذب

من قضايا الدين وقواعده الحكيمية أن الضرورات تبيح المحظورات وإن الله لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ والنسيان وما أكره عليه . فإذا عرضت ضرورة لا مناص منها اضطرت الإنسان إلى أن يفعل ما هو محرم في نظر الدين جاز له أن يفعل ذلك كما إذا اضطره الجوع - الذي قد يفضى به إلى الهلاك - إلى أكل الميتة فإنه يحل له ذلك بل يلزمه أن يفعل تقاديا من الموت وكذلك إذا اضطرت به الضرورة لشرب النجاسة كما إذا كان نائها في الصحراء فإنه يحل له ذلك . وكذلك إذا أكرهه أحد على ارتكاب جريمة ما عدا جريمة القتل فإنه يحل له ارتكابها أما جريمة القتل فإنه لا تحل لأنه في هذه الحالة يكون بين امرين إما قتله أو قتل غيره . وإذا كان لا بد من ازهاق روح فيلزم أن لا يرتكب جريمة القتل ويذر غيره يرتكبها . ومثل القتل الزنا على كلام بطاب من محله . وإذا قد علمت ذلك فاعلم أن الكذب قد تعرض له حالة ضرورة فيأخذ ذلك الحكم . مثلا إذا أراد ظالم أن يقتل شخصا مستجيروا بك ومختبئاً في دارك وجاء ذلك الظالم يبحث عنه وسألك في ذلك فهل يحل لك أن تخبره بالصدق وتقول إنه مختبئ في حجرة كذا في دارى . لا شك في أن هذا لا يحل لما يترتب عليه من قتل نفس ظلما وعدوانا . نعم إذا أمكن أن يعبر بعبارة تبعد عن الكذب وتنهى الرجل كان ذلك حسنا . ولا يقال إن الصدق فضيلة عظيمة فيجب أن تتبع في جميع الشؤون والكذب رذيلة مذمومة فيجب أن يجتنب معها ترتب على ذلك من تضحية حتى ولو كان فيه ازهاق بعض الأنفس . لأننا نقول إن ذلك يكون صحيحا إذا ترتب عليه هدم لتلك الفضيلة وتضييع لها كما إذا اعتاد الكذب باختياره بدون ضرورة تاجه إلى ذلك فإن ذلك إذا فشى بين الأفراد أصبح اقتراف الكذب سهلا وأصبحت الفضيلة مهددة بالزوال . أما في الحالات الاستثنائية التي تحتلها كل قاعدة ويقرها كل نظام فإنه ينظر للمصلحة في ذاتها خصوصا إذا كان الأثر الذي يترتب على الكذب دره مفسدة شديدة كالقتل وإذا كان الله تعالى قد أباح للإنسان أن يرتد في ظاهر أمره عن دينه فإراد

من القتل متى كان قلبه مطمئناً بالآيمان لأن ذلك ظرف استثنائي لا ينافي قواعد الإسلام . أفلا يكون الأخبار بغير الواقع جائزاً للتخلص من القتل . على أن مفهوم الصدق اعتبر فيه الاعتقاد بأن ظهر ما يخالف الواقع خطأً فلا جناح فيه . فالكذب كغيره في نظر الدين إنما حرم بالنظر لما يترتب عليه من المفاسد فتي أمكن التوفيق بينه وبين المصلحة للضرورة فلا يكون محرماً . ومن ذلك الإصلاح بين فئتين عظيمتين يترتب على الإصلاح بينهما حق دماء كثيرة واستقرار للأمن ودفع للفتن فإن التحايل على ذلك بأي وسيلة من الوسائل لازم مهما أمكن . وكذلك القول في الحروب ونحوها . وكذلك الكذب الذي يترتب عليه صيانة عرض أو حفظ مال من الاعتداء عليه ظلماً . والقاعدة في ذلك أن كل ما يترتب عليه حق دماء كثيرة كانت أو قليلة . أو يترتب عليه صيانة الاعراض وحفظ الأموال أو فيه منفعة الأمة فهو لازم مهما كانت ضررته . وليس من الضروري أن نعتبر مثل ذلك خارجاً عن حد الكذب لأنه أخبار عن الشيء بخلافه على كل حال وإنما هو استثناء من الكذب المذموم ولا ضرر في هذا على الصدق لأن هذه الأحوال ليست هادمة له بل هي في الواقع مقررة له لأنه إنما كان ممدوحاً لما يترتب عليه من مصلحة المجتمع وفائدة الإنسان . ولا نظر في هذه الأحوال إلا للفائدة التي ينشدها الدين والعقل ويمتدح من أجلها الصدق

فإن كانت الفائدة التي تترتب على الكذب شخصية لا تترتب عليها آثار عامة بل تكون فاصرة على بعض الأفراد - كالكذب للإصلاح بين اثنين - لا يترتب على الإصلاح بينهما ضرر يعود على غيرها والإصلاح بين الزوجين وكذب الرجل على زوجته وأبنائه ليرضيها فإن الظاهر أنه جائز فقد روى مسلم في صحيحه عن أم كلثوم بنت عقبة أنها قالت « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث . الرجل يقول القول يريد الإصلاح . والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها »

وظاهر هذا الحديث أن أهم الكذب يرتفع في هذه الأحوال الثلاثة . فاما الحروب والإصلاح بين الأمم فأمره ظاهر . وأما الإصلاح بين الأفراد والإصلاح بين الزوجين فذلك محل نظر ينبغي أن يحتسب فيه كل الاحتراس لأن الشارع وإن كان قد أباح للزوجين أن يكذب كل منهما على صاحبه ليرضيه فإنما أباحه في الأحوال التي لا تتعارض مع قواعده العامة وهو أنه لا يكون ذلك من بواعث رفع الثقة بينهما وأن لا يكون سبباً في استسهال الكذب والتعود عليه . وأن يكون في الأحوال الضرورية التي لا مناص فيها من الكذب بحيث لا يمكن صلح ولا رضا إلا بذلك . وأن يكون الخلف بينهما قد وصل إلى حد الفرقة التي يترتب عليها ضرر الأبطال الصغار وهدم الأسرة . ونحو ذلك من المضار الكبيرة التي تعادل جريمة الكذب وترجع عليه . ومثل ذلك الصلح بين اثنين فإنه ينبغي أن يراعى فيه كل ما تقدم . وحيث أن تقدير هذه الظروف دقيق والوقوف عليها عسر فينبغي اجتناب الكذب في مثل هذه الأمور والوقوف عند حد الضرورة الملجئة حيث يتعين الكذب حقناً للدماء أو حفظاً للأموال والاعراض أو تحصيلاً لمصلحة تعود على الجماعة بشرط أن يتعذر التعبير بغير الكذب

النميمة

تعريفها

ومن صفات النفس الذميمة التي تثير الغضب وتبيح ويترتب عليه كثير من الشرور والمقاسد القيمة وهي مأخوذة من نهم الحديث ينم بالكسر والضم من بابي ضرب وقتل نميمة ونميا اذا سعي به ليوقع فتنة أو وحشة. ويقال لمن يفعل ذلك تمام. هذا معنى النميمة في اللغة. وأما معناها في اصطلاح الأخلاقيين فهو أعم من هذا لأنه عبارة عن افشاء السر ونقله الى الناس فمن أفشى سرا أودع عنده أو اطلع عليه من غير علم صاحبه فانه يسمى تمام سواء كان افشاؤه يؤلم المنقول عنه أو المنقول اليه أو يؤلم شخصا آخر غيرهما كما اذا أسر محمد الى علي حديثا يتعلق بعيب في خالد فافشاه على الى أحمد فانه في هذه الحالة لم يؤذ المنقول عنه ولا المنقول اليه وإنما أساء الى خالد. ولا فرق بين أن ينقله بالاشارة أو العبارة كما لا فرق بين أن يسره اليه بنفسه أو يطلع عليه في غفلة عنه كما اذا رأى شخصا يدفن مالا مملوكا له في خفاء فانه لا يحل له أن ينقله الى الناس فان نقله كان تمام. نعم ان كان في كشف السر دفع منكر أو ايصال حق لصاحبه كما لو رأى لصا يدفن مالا سرقة أو رأى اثنين يتآمران على اقرار جريمة فان عليه أن يفشو هذا كي يرد المال لصاحبه ويدفع المعصية قبل وقوعها فالنميمة عند الأخلاقيين عبارة عن كشف المستور من الأمور التي يكره كشفها سواء كان يكره المنقول عنه أو المنقول اليه أو يكرهها شخص ثالث غيرها

انواع النميمة

تتنوع النميمة الى أنواع

أولاً. النميمة عند أرباب الجاه والسلطان وهي شر انواع النميمة ضررا وأشدّها خطرا فكم جرت مصائب وويلات على كثير من الأبرياء المؤمنين العاقلين طاهري القلوب سليمي الصدور فقضت على أرواحهم وأموالهم. وكم نكلت بكثير من نوابغ العلماء فاخرجتهم من ديارهم وأموالهم وأصبحوا عرضة لحن الزمان ونوائب الايام وكم أضرت بصالحين مطمئنين فأودعتهم السجون وسلبتهم الحقوق وجعلت للفاسقين عليهم سلطانا وكم حرمت اطفالا من قوتهم وسلبت منهم نعيمهم بدون جناية اقترعوها ولا جريرة ارتكبوها

ولا ريب في ان النمام في هذه الحالة لا يكون له قلب يؤنبه ولا وازع يزعجه فيزين له حب الجاه والمنصب والمال التجسس على عورات الناس الذين يظن انهم يزاحمون في شهرته او ينافسونه

في مناصبه كي يتخذها سلاحا يستعمله ضدهم كلها أراد . وهؤلاء لا يبالون باختلاق الكذب واختراع الباطل يذيعونه عند ولادة الأمور ويسعون به لديهم للقضاء على الأبرياء وتضحياتهم في سبيل شهواتهم بدون حياة ولا خجل من عباد الله ولا خوف من ربهم وإن عذابه إياهم لواقع . وسخطه عليهم ماله من دافع وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون . ومن هؤلاء الأشرار من يكون كالعقرب فيؤذى من لا ينتفع بأذيته ولا علاقة له به لمجرد الحسد والحقد أو الخوف من أنه يظهر عليه في هذه الحياة فيقلل من شأنه وذلك منتهى الفسق والضلال .

ثانياً . النميعة بين الأصحاب والأصدقاء وهذه شر عظيم أيضا فإن الناس لا بد لهم من التعاون في هذه الحياة ولا بد للأفراد من ثقة تتداول بينهم يعتمدون عليها في معاملاتهم وهذه الثقة إنما توجد بين الأفراد لما يوجد بينهم من تقارب في النفوس وتشابه في الصفات ومتى وجدت هذه الثقة أصبح كل واحد منهم ينظر لصاحبه كما ينظر الى نفسه في جاب النافع له ودفع الضار عنه فلا يخفى عنه سرا ولا يرض عليه بمعونة . وقد تذهب به الثقة إلى أن يفضل على أخيه من النسب ويقدمه على أهله وعشيرته وإن لم يكن منهم . فأشد الناس خيانة وأقطعهم لصلات الود وأفسدهم أخلاقا وأخسهم قدرا وأرذلهم صنعا وأحقهم في نظر الإنسانية من ينتهز هذه الفرصة كي يقف على عورات صاحبه ويعرف موضع الضعف من نفسه ثم يترصص به الدوائر فيذيعها عنه ليقضى بها على حياته الأدبية أو المسادية . مثله في كرامته أو يؤذيه في سمعته . فلا ريب أن من يفعل ذلك لا يصح أن يكون في عداد الإنسان بل الأجدر به أن يكون وحشا كاسرا وذئبا ضاريا على أنه أشد من الوحوش ضررا وأعظم من الذئاب خطرا

ثالثاً . النميعة بين الزوجين أو بين الأهل والأقرباء فمن ثم يفسد بين الزوجين أو يفسد بين الأب وابنه أو بين الأخ وأخيه فهو شر من الشياطين الذين قال الله عنهم أنهم يعلمون الناس السحر ليفرقوا به بين المرء وزوجه وتلك كبيرة من شر الكفار وجريمة من أسوأ الجرائم لأن من يستطيع أن يقطع الصلات الطليعية بنائمه وشاياته فإن خطره على العلاقات الأخرى شديد وضرره على المجتمع الإنساني عظيم ولا ريب في أن النميعة في هذه الحالة أشد من النميعة بين الأصحاب والأصدقاء

رابعا . النميعة بين الجماعات والافساد بين القبائل . وهذه قد يثيرها التنافس السياسي للقضاء على شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل أو اسرة من الأسر فيسعى المنافس في الإيقاع بها عند قبيلة أخرى لتشتبك كل منها بصاحبتها في نضال ونزاع يفضي الى إبادة إحداها . ولا ريب في أن الوشايات والنمائم في هذا أشد ضررا من الوشايات بين الأفراد فإن القضاء على شعب يرى أو قبيلة هادئة لا ذنب لها سوى أنها تزاحم في الحياة جنابة لن يفرها الله تعالى وجريمة لا تمحى

خامساً . النسيمة لرفع الثقة من مزاحم في تجارة أو صناعة أو زراعة وهذا النوع هو الذي يغلب وقوعه بين الطبقات المرتزقة ولو علم هؤلاء أن الرزق لا ينال بالتعدي على بعضهم بعضاً بانتمائهم والوشايات وإنما ينال بالجد والاجتهاد والمثابرة على العمل والصدق والامانة لما أقدموا على تلك الجريمة الشائنة .

سادساً . النسيمة لانزال شخص عن مكانته واحترامه عند فئة من الناس أو طائفة من الطوائف وهذا النوع يقع كثيراً بين المتنافسين في الزعامة الدينية أو الدنيوية فيحملهم الحسد والغيرة على الوشايات والنهائم في بعضهم عند من يعتقدون فيه القدرة على حمل الناس على احترامهم وتقديرهم إياه . ولو علم هؤلاء أنهم بخبايتهم هذه يتناحرون ويسقط بعضهم بعضاً لما أقدموا على ارتكابها هذا معظم أنواع النسيمة وهي كما ترى من شر مامنيات به الفضيلة ورزأت به الانسانية . فقاتل الله النمام الذي قد اجتمعت فيه الحسة والدناءة ومعظم الصفات المردولة لانه لا يبالي أن ينقل الكذب فهو من زمرة الكاذبين ولا ينفك عن الغيبة لأن النسيمة غالباً يصاحبها ذكر العيوب . فإذا أفضى سرا وذكّر عيوب أخيه كان نماماً مقتاباً . ولا ينفك عن القدر والحياة والحقد والحسد والتعلق والنفاق والافساد بين الناس والقضاء على سمعة إخوانه وكرامتهم وأموالهم وأعراضهم . ومن كان كذلك فهو من شر خلق الله الذين يسعون في الأرض فساداً . من أجل ذلك كانت النسيمة من الكبائر في نظر الدين الاسلامي وقد حرمها الله تعالى في كتابه الكريم . ووصف فاعلها بأخس الصفات وأرذلها قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين همار مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم) وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر كثير من الصفات المردولة التي هي أصول الشرور والمفاسد بين الناس . فالخلاف المهين هو الذي يحلف كثيراً من غير ضرورة بالحق وبالباطل . وإنما يفعل ذلك من اتخذ الكذب شعاراً له حتى أصبح كذاباً في نظر الناس . مميناً عندهم فلا يصدقونه في خبر ولا يتقون به في حديث فيكثر من الحلف ليعيد اليه بعض الثقة . وما هو بموثوق به على أي حال . ومن كان كذلك فهو شر على نفسه وعلى المجتمع الانساني . فلا يبالي أن يعتدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والهاماز أصله لغة مأخوذ من الهمز وهو الضرب باليد أو العصا استعير للذي يعيب الناس بلسانه أو ينال منهم بالإشارة أو الغمز بالعين وهو المغتاب الذي سبق الكلام فيه . والمشاء بالنميم هو نقال الحديث من قوم لقوم أو من شخص لآخر على وجه الافساد ويتناول ما تقدم من أنواع النسيمة . والمناع للخير هو البخيل المسك الذي يرضن بالانفاق حيث يجب البذل . والمعتدي هو الذي يعتدي على الناس ويظلمهم . والآثيم هو كثير الآثام .

فلك الصفات اذا وجدت جميعها في شخص أو وجدت واحدة منها فيه كان جديراً بأن يحتقر ولا يطاع فيما يريد من إيذاء الناس باقتطاع حقوقهم بالآيما الفاجرة أو الطعن في أعراضهم بالاغتياب أو إيذائهم بالنسيمة أو منع حقوقهم عنهم بالشح . بل ينبغي أن يزدجر بمقاطعة والانصراف عنه . فإن حلف لا يصدق وإن اغتاب الناس لا يصغى له ولا يستمع لغيبته . وإن رمى لاسمع وشاياته . وإن بخل لا يعان على بخله . ولو كان له مال قد يظن أنه يجعل له قدراً وقيمة

في الحياة كما قال تعالى (أن كان ذا مال) - أى لا تظعه لأن كان ذا مال - فإن المال في مثل هذه الحالة لا يغنى عنه شيئاً . فلا يحفظ له كرامة ولا يصون له قدراً وهو شر الفاسقين وأرذلهم كما وصفه الله تعالى بعد ذلك بقوله (عتلّ بعد ذلك زنيماً) فالعتلّ هو الفاحش اللثيم . أو الشديد الفاتك الذى لا يبالى بالفنك بالناس وايدائهم في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم . والزنيماً ولد الزنا الذى ينتسب إلى قوم ليس منهم . مأخوذ من الزنمة بفتح الحاء وهى ما يتدلى في حلق المعز وهى الجلد الزائدة التى تعلق بها وكأنها ليست منها . شبه بها الدعى الذى ينتسب إلى قوم ليس منهم فمن كانت فيه هذه الصفات كان جديراً بأن يكون متولداً من نطفة خبيثة لا يعرف للخير سبيلاً . وليس معناه أن كل أولاد الزنا شر على الناس إنما الغالب أن يكون ولد الزنا شريراً فاسداً يتبع والديه في أخلاقهما المرذولة ويرثهما في أوصافهما الممقوتة مالم يرب تربية صالحة في بيئة كريمة فنزع من نفسه تلك الصفات وتبرأ منها كما قدمناه لك في مبحث الشح وغيره . فاذا وجدت تلك الصفات المرذولة في شخص كانت أمانة على خبث نطقته وعلامة على أنه ابن زنا .

ومن ذلك يتضح لك أن الله تعالى جعل النام في سلك هؤلاء المجرمين الذين هم من عنصر فاسد وأخلاق شائنة . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة تمام » وفي رواية - قتات - رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى . والقتات والنام بمعنى واحد . وقيل النام هو الذى يكون مع جماعة يتحدثون بحديث ثم ينقله عنهم على وجه الافساد . والقتات هو الذى لم يكن موجوداً معهم ولكن يسترق الحديث ويسمعه ثم ينقله كذلك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة قالوا بلى قال إصلاح ذات البين فان فساد ذات البين هى الحالقة » رواه أبو داود والترمذى وابن حبان في صحيحه .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « هى الحالقة لأقول تحاق الشعر ولكن تحلق الدين » وقال صلى الله عليه وسلم « ليس منى ذو خسد ولا نعمة ولا كهانة ولا أنا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » رواه الطبرانى .

وكفى بذلك من قول الله تعالى وقول رسوله ذماً للنعمة وزجراً للمؤمنين الذين هم بهم لا يعدلون .

علاج النعمة

واذ قد تبين أن النعمة داء وويل وشر خطير تترتب عليه كل هذه الشرور والمفاسد فينبغى أن يتصافر المسلمون على محاربتها والقضاء عليه حتى لا يبق له ظل ولا يظهر له أثر وخير علاج يقضى عليه

أن ينصرف الناس عن النامين ولا يستمعون لهم ولا يتأثرون بنائمهم ووشاياتهم كما قال تعالى (فلا تطع كل حلاف) الآية .

روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر عنده وشاية في رجل آخر فقال له عمر إن شئت حققنا هذا الأمر الذى تقوله فيه ونظرنا فيما نسبته اليه فان كنت كاذبا فانت من أهل هذه الآية (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) وإن كنت صادقا فانت من أهل هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وإن شئت عفونا عنك فقال العفو يا أمير المؤمنين لا أعود اليه أبداً . فثل ذلك الرجل الذى قابله عمر بن عبد العزيز بمثل هذا التائب لن يعود اليه بنسيئة مادام حيا . فلو سلك الناس هذا الطريق مع النامين لقضوا على هذا الداء قضاء مبرماً . فمن لم يستطع ضبط نفسه فثار غضبه عند سماع النسيئة فيجب عليه أن يتثبت في الأمر ولا يتسرع في توقيع العقوبة عملاً بقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) فان النام فاسق بنميمته والفاسق لا يصح الوثوق بخبره بل ينبغى التثبت فيه لأنه يكون كاذباً في الغالب وليس الغرض من ذلك أن يتجسس ويبحث عن صحة ما قال وإنما الغرض أن ينظر فيما نقل اليه ويتأمل في غرض الناقل لأنه لم ينقل إلا لغرض فاسد يناله اما من المنقول اليه كأن يطمع في منصب أو مال أو جاه واما من المنقول عنه كأن يريد التشفى فيه والانتقام منه بتحريض المنقول اليه على ابدائه . ومن كان هذا شأنه فلا يصح التعويل على خبره فتسكن نفسه عند ذلك وينصرف عن سوء الظن بأخيه الذى نهى الله عنه قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً) ولا يفوت أحداً من الحذاق أن النام الذى ينقل اليه لغرض يناله من وراء ذلك لن يحجم لحظة في أن ينقل عنه لغيره متى لاح له ذلك الغرض . ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله من نتم اليك نتم عنك .

فليس من العقل أن يحسب للنام حساباً أو يجعل لوشايته قيمة فانه اذا فعل معه ذلك بارت بضاعته وخسرت تجارته وباء بالخزي والفشل . وذلك خير زاجر يزجره عن اقرار ذلك الاثم وأكبر مؤدب يعده عن ارتكاب هذه الخطيئة . وينبغى للمنقول اليه أن لا يذكر الوشاية التى نقلت اليه لصاحبها والا كان هو نماماً أيضاً فيقع في الاثم الذى وقع فيه غيره فضلاً عما في ذلك من العناية بالنسيئة باحياء ذكرها مع أن اللازم إمامتها واعتبارها كأنها لم تكن .

هذا خير علاج تعالج به النسيئة وهو زجر النام وعدم الاصغاء الى نائمته ووشاياته فان كان المرشد يظن خيراً بالنام ويعتقد أنه يتأثر بالموعظة الحسنة فعليه أن يذكره بما يترتب على نائمته من إيذاء الأرباء وظلم الناس في أموالهم وأرزاقهم ويحذره من عاقبة وشايته فقد ينكشف أمره عند حاكم عادل فيقتص منه شر قصاص . أو يظهر كذبه عند من ينقل اليه فينعكس غرضه وتزيد الوشاية في الرابطة بينه وبين المنقول عنه . وربما نتم على رجل أقوى منه فينتقم لنفسه بما لا قبل له به فضلاً عن أن النام منها اكتسب بوشايته فهو ساقط المروءة في أنظار الناس مبغوضا عندهم وهو مع كل ذلك في سخط الله تعالى وأهل لعقوبته وبطشه . وإن بطشه لشديد

الكبر والعجب

تعريفهما

من الصفات النفسية المردولة التي كثيراً ما تثير الغضب وتهيجه وتورث العداوة والبغضاء بين الناس الكبر والعجب . كما يناه لك في درجات الغضب .

فأما الكبر فعماد في اللغة العظمة والعزة . ومثله الكبرياء . وقد فسر ابن عباس الكبر في قوله تعالى (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) بالعظمة فالكبر صفة حاصلة للنفس تنشأ من اعتقاد المرء في أن له منزلة أعلا من منزلة غيره فيحصل له من تلك العقيدة هزة فرح في قلبه وعزة . فذلك العزة صفة الكبر . ويرادفه الزهو — بفتح الزاى وسكون الهاء — والفخر والخيلاء — بضم الخاء وكسرها — ويقال زهى الرجل — بضم الزاى — فهو مزهو إذا تكبر .

وأما معناه في نظر الدين والأخلاق فهو العزة التي يترتب عليها آثار سيئة تضر بالأفراد والمجتمع . يدل لذلك ما رواه مسلم والترمذي عن ثابت عن قيس بن شماس . قال « يارسول الله إني امرؤ قد حبيب إلى من الجلال ما ترى أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمص الناس أو غمط الناس » ومعنى الحديث أن الكبر هو هزة القلب التي يترتب عليها أمران احتقار الناس وازدراؤهم وإهانتهم بالقول والفعل . أو يترتب عليه رد الحق ودفعه وهو عالم به سواء كان من حقوق الله أو من حقوق عباده . فعنى بطر الحق رده وجحده وهو عالم به ومعنى غمص أو غمط الناس احتقرهم . أما فرح النفس بالشئ الجميل الذي لا يترتب عليه هذان الأمران فليس بكبر فإذا تأثرت نفسه بجمال شئ بجمال الثياب والزينة المباحة وأحبها من غير أن يحجره ذلك إلى احتقار الناس والتطاول عليهم فإنه لا يقال له كبر . وكذلك إذا تأثر بالجمال المعنوي كأن أحب صفة العلم والشجاعة وقدر الفضائل التي تتصف بها نفسه فاهتز لذلك قلبه وعزت بها نفسه من غير أن يترتب على ذلك احتقار غيره وجحد الحق فإنه لا يسمى كبراً . ومن ذلك ما إذا قدر الإنسان نفسه فسياها عما لا يليق فابتعد عن البيئات التي ياحقه منها عار أو يصيبه من وراء الاختلاط بها ضرر مادي أو أدبي فإنه لا يكون مذموماً بل هو مطلوب شرعاً . وكذا إذا أحب عزة النفس ليكون وقوراً بين الناس متحلياً بالصفات التي يقدسونها ويحترمونها كي يكون مطاعاً في قومه ليرشداهم إلى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيتبعونه في أمره ونهيه . لا غرض له من ذلك إلا هدايتهم وصلاحهم ولا مقصد له إلا رشدهم وفلاحهم . فلا يفعله خوفاً من ذم أو رغبة في مدح كما تقدم في مبحث الرياء فإنه يكون ممدوحاً كل المدح . فعزة النفس تكون كبراً مذموماً إن ترتبت عليها آثار

سيئة وتكون صفة ممدوحة مطلوبة شرعا ان ترتبت عليها آثار صالحة وتكون مباحة ان ترتب عليها حب الجمال في ذاته والفرح به من غير أن يترتب على ذلك خير أو شر . هذا معنى الكبر في اللغة والشرع ويؤخذ منه أن معناه في نظر الشرع يستلزم متكبرا عليه وهو الذي تظهر فيه الآثار وهو بهذا المعنى يفارق العجب لأن معنى العجب استعظام النعمة التي ظفر بها والركون اليها من غير اضافتها الى المنعم وهذا الاستعظام متعلق بالنفس وحدها فان تعلق بالغير كان كبيرا . فالعجب سبب موجب للكبر لأن الذي يستعظم النعمة ويعتقد أنه أهل لها بدون أن يعترف للمنعم بفضل فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه الكمال وأن له مرتبة فوق مرتبة غيره وذلك يفضي الى العزة والتكبر

سبب الكبر

واذ قد علمت ذلك تعلم أن سبب الكبر المباشر هو اعتقاد المرء في نفسه أن له منزلة أعلا من منزلة غيره وأن العجب سبب في ذلك الاعتقاد . وقد يكون هذا الاعتقاد ناشئا عن صفة كمال حقيقية كالعلم أو النسب أو الجاه والسلطان . وربما نشأ عن غرور ووهم بحيث يعتقد أنه أكمل من غيره خطأ وجهلا وربما نشأ الكبر عن نقص في ناحية من نواحيه فيتعمد العظمة ويفعل ما تستدعيه من آثارها ظنا منه أن ذلك يسد نقصه فيه . فترى بعض المظلمون في أنسابهم مثلا يتكبرون عند ما يتاح لهم شيء من السطة ظنا منهم أن ذلك يرهب الناس فلا يحقرونها من ناحية نقص أنسابهم وكذا من كان معروفا بنقيصة في عرضه أو دينه فانه يتعمد العظمة لهذا الذي ذكرنا . وهذا كثير معروف بين الانسان . فمن أراد أن يحاول استقراءه يجد أن كثيرا من حالات الكبر ناشئة منه ومرتبة عليه وهؤلاء الذين يتكبرون بسد النقص فيهم يخطئون كل الخطأ . فان التكبر لا يزيد الناس الا حقدا عليهم فيدفعهم الحق الى اذاعة سوءاتهم مضاعفة ونشر عوراتهم مكبرة ويترصدون الفرص للانتقام منهم عند زوال تلك السلطة . مع أنهم لو أنصفوا أنفسهم وعاملوا الناس بالرفق واللين والعدل والتواضع كان ذلك وحده كاف في تقديسهم واجلالهم ونسيان كل نقيصة فيهم وما أحسن قول بعضهم :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك محموده عن النسب

فأما الكبر المترتب على الصفات الحقيقية فانه من شر الآفات التي تذهب بجمال تلك الصفة وتضيع ثمرتها الممتصودة منها . فاذا كان ناشئا عن صفة العلم كان صاحبه مثالا سيئا وقدوة رديئة خصوصا اذا دفعه الكبر الى الاتصاف بصفة ذميمة كالخسد والحقد أو أفضى به الى ارتكاب مظلمة من المظالم يده أو لسانه فان عار هذا لا يمحي وضرره لا يقدر لأن الناس يقتدون بالعلماء في أقوالهم وأفعالهم فيستسلمون عند ذلك ارتكاب الجرائم . ويستيجون الاتصاف بالصفات الذميمة وذلك شر عظيم وبلاء مبین

وأيضاً فإن العالم المتكبر ينصرف الناس عنه وينفضون من حوله فلا ينتفع بعلمه إلا من يوافقه على هواه فلا يرد عنه خطأ ولا يشير عليه بحق ولا يراجحه في غرض ومثل هذا لافائدة من تعليمه لأنه يكون ناقص النفس ضئيف الإرادة ومن كان هذا شأنه فإن علمه يكون شراً ووبالاً لأنه يستعين به على الشر ويستخدمه في الفساد. أما العلم النافع فهو الذي يربي الأنفس ويظهرها من الصفات الرديئة فيكون صاحبها مثلاً حسناً للناس وقدوة صالحة في الأقوال والأفعال.

ولذا كان الكبر ناشئاً عن النسب فإنه يكون سبباً في الطعن على ذلك النسب وحمل الناس على الاعتقاد بأنه نسب رديء الغنصر خسيس الأصل فإن النسب الشريف هو الذي تترتب عليه آثار صالحة تدل على رفته وكرمه. أما من يتكبر فيظلم الناس ويؤذيهم ويحتقرهم فإنه لا يكون من عنصر طيب ولا من أصل كريم وقد ينهم الناس من يفعل ذلك بأنه ولد زنا وذلك حق فإن الله تعالى وصف الثام والفاجر والمناع للخير بأنهم أولاد زنا كما تقدم في مبحث النعمة وذلك لأن الأعمال الفاجرة تتبع خبث المنى غالباً ما لم يتح لولد الزنا بيئة صالحة يربي فيها وينزع من نفسه تلك الصفات الرديئة التي ورثها من أصله واكتسبها من والديه.

أما إذا كان الكبر ناشئاً عن الجاه والسلطان فإنه يفضي إلى شر أنواع المظالم وانتهاك حقوق الله وحقوق العباد . ولقد علمت فيما مضى أن الكبر الضار هو الذي تترتب عليه مظلة أو ضياع حق من حقوق الله فاما العزة التي ينشأ عنها ما ينفع الناس وما يحفظ كرامة المرء وما يقتضيه النظام فإنها لازمة ضرورية . مثلاً ما يستدعيه نظام الحكم من ترفع الحاكم عن مخالطة العامة ومجاورتهم بما يسقط هيئته أو يطعمهم في قصائه أو يسهل لهم الإخلال بالنظام فإنه واجب ضروري إذا أهمله الحاكم لم يكن جديراً بالحكم إنما الكبر الممنوع هو أن لا يبالي بهم فلا يسمع شكوى ضعيفهم ولا يسمع له بالدنو منه ليعبر له عن مظالمه وينتقم ممن لم يؤد له ما تقتضيه العظمة من أنواع العبودية الظاهرة فلا يبالي أن يبطش به ولا يتورع عن أخذه بما هو بريء منه . أو يحقد على من رفع صوته أمامه أو توسع في الدفاع عن نفسه بما لا يرضيه وكذا إذا أعرض الحاكم عن سماع النصيحة واستكبر عن العمل بالحق فإنه في هذه الحالة يكون متكبراً مذموماً.

مضار الكبر

وآثاره السيئة

تنقسم آثار الكبر إلى قسمين آثار باطنة وآثار ظاهرة وتلك الآثار تسمى تكبراً . فمن القسم الأول طغيان الغضب فإن المتكبر يستحق من يتكبر عليه ويرى منزلته فوق منزلته فإذا ما توهم أنه واقف في سبيل عظلمته وعزته نأر لذلك غضبه وطفئ عليه

ومنه الحق والحسد لأن المتكبر إذا رأى نعمة على من يعتقد أنه اعلا منه رتبة يحسده عليها ويتمنى زوالها عنه لانه حقير في نظره فلا يستحق تلك النعمة
ومنه الحق لان المتكبر اذا رأى من يريد ان يتكبر عليه قد وقف امامه في أمر لا يحبه ولم يستطع الانتقام منه فقد عليه وتربص به الفرص

ومن القسم الثاني ما يترتب على طغيان الغضب من المظالم والاعتداء على عباد الله تعالى. فانك قد علمت أن المتكبر يثور غضبه اذا رأى من يعتقد أنه دونه وقد حاول المساس بعظمته فلا يبالي عند ذلك أن يبطش به ويعتدى عليه في عرضه أو نفسه أو ماله أو دينه سواء أكان ذلك بمباشرة أو باغراء الناس عليه . ومنه أنه اذا لم يستطيع أن يبطش به بيده ويعتدى عليه اعتداء صريحاً في وجهه فانه يسلط عليه لسانه بأن يفتابه وينشر عيوبه بين الناس او ينم عليه ويوقع به عند من ينتقم له منه سواء اكان ذلك حقاً أم باطلاً ومنه أنه يتسلط على الضعاف ويسخرهم في أغراضه وشهواته وهو يعتقد ان ذلك واجب مقدس عليهم نحوه فلا يجوز لهم ان يشنوا عنه أو يقصروا في ادائه ومن اجل ذلك يتعذر عليه أن يشكر احداً على عمل أو ينوه بفضل احد عليه مهما اسدى اليه من معروف ولا يمكنه ان يذكر له يداً عليه . ومنه الاختيال في المشى وجر الثياب الى غير ذلك من الصفات الذميمة التي يجرها الكبر وراه وتظهر آثارها على وجوه المتكبرين وأيديهم ولسنتهم وأبدانهم ومنها يؤخذ أن المتكبر حسود حقود كذوب مغتاب تمام ظالم معرض عن الحق لأنه لا يستمع لنصيحة من يتكبر عليه ولا يقر له بفضل . فهو من أشقى خلق الله وأضرهم على المجتمع الانساني وأظلمهم لنفسه لأنه ممقوت عند الله وعند عباده ولقد علمت مما مضى ان صفة واحدة من الصفات التي يستلزمها الكبر اذا نفشت في أمة من الأمم كانت كافية في ازالتها وفنائها فالكبر من شر الأدوية التي يجب على الناس علاجها ومحاربتها بكل الوسائل

فإذا شر مضار الكبر وآثاره السيئة الظاهرة والباطنة ذكرناها لك ليسهل عليك علاجه بعلاج كل أثر من تلك الآثار

اقسام الكبر

بالنسبة للتكبر عليه

وأدلة تحريمه من الكتاب والسنة

ينقسم الكبر بالنسبة للتكبر عليه إلى ثلاثة أقسام . كبر على الله تعالى . وكبر على رسله عليهم الصلاة والسلام . وكبر على عباد الله . فأما الأول فهو شر الأقسام وأسخفها لأن الإنسان الضعيف الذي يصصره أضعف الحيوانات لا يليق به أن يتكبر على خالقه العظيم الذي يستمد منه وجوده وبقائه ويحتاج إليه في كل حركة وسكون ومن يحمل قدر نفسه وقدر خالقه فهو من بهيمة الأنعام بل هو أضل سبيلاً كما أخبر الله عن الكافرين - الذين استكبروا عليه - في غير موضع من كتابه العزيز . وكيف يحمل الإنسان قدر إلهه القادر القاهر الذي أبدع العالم على أحسن إحكام وأدق تكوين . وله سبحانه في كل جزء من أجزاء خلقه شاهد واضح الدلالة . وحجة ظاهرة البيان تنطق أنه هو ذلك الصانع الذي ليس كمثل شيء وهو السميع البصير . ولقد أرشد الله تعالى عباده إلى دلائل وجوده وقدرته في كثير من القرآن الكريم قال تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حياً ونباتاً وجنات ألفافاً) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون) وقال تعالى (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبئكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً) وقال تعالى (أفرأيتم ماتمون أأنتم تتأفونهم أم نحن الخالقون) . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إله واحد قادر قاهر لا يهجزه شيء في الأرض ولا في السماء ولا تستغنى - عن تديره وحكمته - مثقال ذرة من تلك العوالم التي رتبها ترتيباً بديع الصنع . وجعل الإنسان أفضل الأنواع وأعلاها قدراً وأكرمها منزلة . فقد ميزه بالعقل والعلم . وفضله بالادراك والمعرفة . وسخر له كل مافي هذا الوجود من شمس وقر ونجوم وسحب وسماء وأرض وماء وهواء وجبال . ونحو ذلك من كل ما ينتفع به الإنسان في كل شأن من شئونه وقد من الله

تعالى عليه بالعقل الذى يرشده إلى استخدام هذه العوالم ويهديه إلى معرفة خواصها ومزاياها . ولولا ذلك ما عاش الانسان طريقة عين . إذ لو انقطع عنه الماء أو الهواء أو الحرارة لانعدم من فوره واصبح كأن لم يكن شيئاً مذكوراً . فهو مدين فى حياته لتلك الأشياء التى خلقها الله تعالى وسخرها له فضلاً منه عليه ورحمة به حتى إذا جاء الأجل الذى قدر له قبضه الله إليه ليعيده الى حياة خالدة مستمرة يسعد فيها المؤمنون سعادة كاملة . ويعيشون عيشة راضية مرضية لاتعب فيها ولا نصب . فن لم يتدبر فى هذه الآيات الواضحة والدلائل القاطعة فهو جدير بأن يكون كالأنعام بل هو أضل سبيلاً .

هذا ولذا ذكر لك تفسير ما يحتاج إلى تفسير من الآية الأولى استعجالاً للفائدة . أما غيرها فانا نرجى الكلام فيه إلى مايتأتى فى مباحث الواجبات الدينية فى الجزء الثانى إن شاء الله .

فمعنى قوله تعالى (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبـال أوتاداً) الخ . قل كيف تنكرون . أو كيف تشكون فى البعث المذكور فى الآية السابقة بعد ما شاهدتم مايدل عليه من قدرتنا التامة وحكمتنا القاهرة التى ترشدكم الى أننا ماخلفناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون (والمهاد) معناه الفراش المهد الموطأ . وهو بمعنى المهد - الموضع الذى يهد للصبي - فقد شبه سبحانه لنا الأرض بالموضع الذى يهد للصبي فيسترى فيه . بجامع أن كلا منهما ضرورى لراحة الانسان فلا يمكنه أن يعيش بدونه ولا يحيا بغيره . ولقد خلقها الله على أتم نظام وأبدع إتقان . خلق الجبال لتحفظ توازنها فلا تضطرب من ثقل ماعليها ولا تميد بأمواج البحار المحيطة بها فكانت الجبال منها كالأوتاد من البيت . ومعنى قوله تعالى (وخلقناكم أزواجاً) أى مزدوجين ذكراً وأنثى وهذا هو طريق التناسل فى الانسان وغيره . ولولاه لما تم بناء العمران ولا وجد الانسان ما يحتاج اليه من فاكهة ونبات وحيوان . بل لم يوجد الانسان رأساً . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً) أى موتاً لأن معنى السبات فى اللغة الموت وقد جعل النوم كالموت . فلا ندري كيف تنام وكيف نستيقظ ومهما عرفنا من الأسباب التى تقضى إلى النوم أو اليقظة فانا لا يمكننا أن نعرف ماهية النوم وحقيقته وإذا كنا تنام ونستيقظ فى كل يوم وليلة . والنوم نوع من الموت . فكيف نذكر قدرة الله على إعادةتنا بعد الموت أو نشك فى ذلك . ومعنى قوله تعالى (وجعلنا الليل لباساً) أى ساتراً لكم عن الآعين إذا أردتم اخفاء أمر من الامور أو هرباً من عدو أو غير ذلك . ومعنى (وجعلنا النهار معاشاً) أى وقت معاش تحصلون فيه أرزاقكم . ومعنى قوله (وبنينا فوقكم سبعا شداداً) أى سبع سموات محكمة الصنع قوية الخلق لتتفعوا بما أودعه الله فيها من كواكب وجاذبية تربطها بالأرض التى تعيشون فوقها من غير أن يختل بناؤها أو يفسد نظامها فيقع عليكم منها ما يهلككم فلم يبق لكم أثر . فلو لم يكن خالقها إلها قادراً عليها حكماً لعرض على بنائها ما يعرض على الأنبياء من الخلل ويعتورها ما يعتور مثلها من الفساد . وعند ذلك يسقط عليكم منها ما يسرع بهلاككم ويجعلكم أنراً بعد عين . وقوله تعالى (وجعلنا سراجاً وهاجاً) أى أنشأنا الشمس التى تتلألا كالسراج المتلألئ لحاجتكم الضرورية اليها ولولاها ما طاب لكم نبات ولا اثر لكم زرع ولا ين لكم وجود (والمعصرات) الرياح التى تعصر السحاب فتُمْطر أو هى نفس السحاب وسميت

معصرات — بالكسر — لامعصرات — بالفتح — لأنها تعصر — أى تغيث الناس — من القحط والجذب (والماء الثجاج) المنصب بكثرة يقال ثج الماء إذا سال بكثرة (وألفافاً) مانفة تداخل بعضها بعض .

فمن ذا الذى يرى هذا بعينى رأسه ويكون له عقل يدرك به الضروريات من الأمور ثم يحمد الصانع الحكيم القاهر العليم ولا يؤمن بأنه واحد سميع بصير فيتكبر عليه وينصرف عن آياته ويحجدها ظلاماً وعتواً ولقد ذم الله هؤلاء بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) ذلك لأن الكبر يحول بينهم وبين النظر فى الحق ويدفعهم إلى الاستهانة بالبراهين واحتقار من يلفتهم إليها فتقسو بذلك قلوبهم وتتراكم عليها السيئات فيطاع الله على قلوبهم وينصرفهم عن النظر فى الآيات المنصوبة فى الآفاق قال تعالى (كذلك يطاع الله على كل قاب متكبر جبار) وقال (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) وقال إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (أى صاغرين ذليلين

فمن تكبر على الله تعالى فلم يؤمن بذاته وصفاته أو استكبر عن عبادته فانه سيمر نتيجة كبريائه ذلاً وصغاراً وعذاباً ألماً يوم البعث والنشور فضلاً عما يصيب كثيراً من المتكبرين من الانتقام الدنيوى كما وقع لفرود وفرعون موسى وغيرهم من المتكبرين .

وأما المتكبر على رسل الله فهو كالمتكبر على الله فى نتيجته فان جزاءه الخلود فى نار جهنم لأنهم إنما جاؤا بتوحيد الله وتنزيهه عن كل مالا يليق وهداية الناس الى سبل السعادة فمن استكبر عليهم ولم يؤمن بهم فقد كفر بربه وخسر خسرانا مبيناً .

ولقد قال المستكبرون من قريش (لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يريدون الوليد بن المغيرة من أهل مكة وأبا مسعود الثقفى من أهل الطائف . دفعهم الكبر الى أن يطلبوا من هو أعظم رئاسة من النبى صلى الله عليه وسلم لأنه غلام يتيم . وإن كان من أظهر أصلاهم . وأشرف أنسابهم فرد الله عليهم بقوله (أهم يقسمون رحمة ربك) ذلك لأنهم جهلة غلاظ القلوب لم يقدروا الله خالقهم الذى بيده ملكوت كل شىء فهو يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بدون رقيب ولا محاسب وهو العليم بقلوب عباده فيمنح كل واحد منهم ما هو له أهل والله واسع حكيم

روى مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ستة نفر فقال المشركون اطرد هؤلاء عنك فانهم وإنهم قال فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما قال فوقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله فحدث به نفسه فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) وروى عن خباب بن الارت « (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) قال جاء الأقرع بن حابس التيمى وعيينة بن حصن الفزارى فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال وعامر وصهيب وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حقروهم غفلوا به فقالوا إنا نحب أن تجعل لنا ملكاً مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا فان وفود العرب تأتيناك فستجى أن يرانا العرب قعوداً مع هذه الأعباء فاذا نحن جئناك فأقمهم عنا فاذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت

قال نعم قالوا فاكتب لنا عليك كتابا فدعا بالصحيفة ليكتب لهم ودعا عليا ليكتب فلما أراد ذلك ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربيم بالغداة والعشي يريدون وجهه) إلى قوله (فتكون من الظالمين) ثم ذكر الأقرع وصاحبه فقال (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ثم ذكر فقال (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) فرمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة ودعانا فأثنيته وهو يقول سلام عليكم فدعونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) يقول لا تعد عيناك عنهم تجالس الأشراف (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أما الذي أغفلنا قلبه فهو عبيدة بن حصن والأقرع . وأما فرطا فهلاك . فإذا بلغت الساعة التي كان يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم ولا صبر أبدا حتى يقوم « رواه ابن أبي شيبة ورواه أبو نعيم .

ومعنى هذا أن هذين الكبيرين من العرب حماهما الكبير والافتة على احتقار بعض هؤلاء المؤمنين لضعفهم من جهة المسال والنسب فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يختصم بمجلس لا يشمل على هؤلاء الضعفاء . وفي رواية أنهم يؤمنون به إن فعل ذلك وكان صلى الله عليه وسلم حريصا جد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم ورأى أن هذا لا يضر أصحابه خصوصا بعد أن يدخل هذان معهما فإن الدين كفيل بهتذييهما فاجابهما إلى طلبهما . ولكن الله تعالى الذي شرع الدين وهو فوق عباده جميعا . أبي على نبيه ذلك وأعد له أنه لا يبالي بالمتكبرين ولا يحفل بدخولهم في دينه مادامت أنفسهم متأثرة بالعزة السكاذبة واحتقار المؤمنين لأن دينه تعالى قد جاء بالقضاء على هذه الرذيلة ولم يجعل الاحترام وتلو المنزلة ورفعة القدر مرتبطا برفعة النسب أو كثرة المال أو الجاه والاساطان وإنما جعل ذلك مرتبطا بالعلم النافع وتقوى الله تعالى ولذا قال نبيه (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أي مجاوزا عن الحق فكان في ذلك هلاكه . وقال تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية وقال عز وجل (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) الآية فصدع نبينا عليه الصلاة والسلام بأمر الله تعالى وأبلغ ما أوحى إليه من ربه وذلك شأنه فكل ما أنزل إليه من ربه سواء أكان له أم عليه لانه رسول من عند الله حقا وهو الصادق الأمين حقا عليه الصلاة والسلام .

وأما التكبر على خالق الله فقد علمت أنه من شر الرذائل وأسوأ الصفات لأنه يستلزم مظالم شائعة وجرائم عظيمة وقد يغضى به ذلك إلى التكبر على الله تعالى وعلى رسوله لأن الله تعالى نهاه عن ارتكاب تلك المظالم وحذره عاقبة شرها فلم يبالي به ولم يخش وعيده ولم يخف بطشه وفي ذلك كبر وعتو لأن التبرد على خالق الله تمرد على الله . وأيضا فإن المستعظم على عبد من عباد الله لا يصغى لقوله مهما كان حقا مفروضا ولا يدخر مجرودا في رده بالباطل . وهذه أخلاق الكافرين الذين يستكبرون على الله تعالى .

فمن أجل ذلك حرم الدين الكبير ونهى عنه نهيا شديدا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبه خردل من نفاق . ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبه خردل من كبرياء » رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن حديث ابن مسعود . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقته في النار » رواه ابن ماجه وغيره .

ومعنى الحديث أن العظمة — وهي هنا كون الشيء كاملا في ذاته شريفا من جميع جهاته مستغنيا عن كل ما سواه — وهي عظمة الخالق سبحانه وتعالى وأن الكبرياء — وهو الترفع عن الانقياد للغير الذي يستلزم الاستغناء المطلق — هو كبرياء الخالق . فهذان الوصفان هما من أخص صفات الله تعالى فلذا شبههما بالرداء والازار فليس من حق العبد الضعيف أن يتصور لنفسه كمالا على الناس منها أتبع له من منصب أو جاه أو سلطان لأنه لا مناص له من الافتقار اليهم ولا مفر له من النقص الذي يحيط به من كل ناحية وهو عنه غافل وبه جاهل أوله متجاهل . وليس من حقه أن يترفع عن الانقياد للناس . فيجحد الحق ويعرض عن النصيحة أنفة واستكبارا . ومن يفعل ذلك فقد نازع الله في أخص صفاته فأغضبه عليه ومن غضب عليه ربه فإنه يلقى في جهنم ولا يبالي بعظمته الكاذبة وكبريائه الزائف .

وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه وقال إني أمركم بأثنين وأنها كما عن اثنين أنها كما عن الشرك والكبر وأمركم بلا إله إلا الله فإن السموات السبع والأرض وما فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ولو أن السموات والأرض وما فيهن كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لفصمتما وأمركم بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء » رواه احمد والبخاري .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة دخل الجنة الكبير والدين والغلول »

ومعنى الحديث الأول أن لكلمة التوحيد من المسكنة الرفيعة والرجحان عند الله تعالى أكثر مما للسموات والأرض وما فيهن ولها من القوة المعنوية والتأثير مالمثل بالقوة الحسية ثم مثلت له السموات والأرض بحاقة ووضع عليها لقطعها وهو كدبة عن عظم قدرها وقوة تأثيرها عند الله تعالى خالق كل شيء . فمن قالها بقلب خالص وإيمان صادق وقدر معناها حق قدره فادرك أن معنى لا إله إلا الله الغالب على كل شيء والذي لا يغلبه شيء . وأدرك أن ذلك الغالب القاهر فوق عباده منفرد بالتصرف فلا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض ولا يشاركه إله آخر وأنه ليس كمثل شيء فهو واحد في ذاته فليست ذاته مركبة من أجزاء وليس معه إله يشبهه . وواحد في صفاته فليس لاحد من خلقه صفة تشبه صفته لأن كل ما عدها ضعيف . فان من يمتد منه الوجود لا يكون الا قديما لا يحتاج الى من عده . ومن كان هذا شأنه فصفاته لا تضاهي صفات المحتاجين . وواحد في أفعاله فلا يعارضه في فعله أحد ولا يفعل أحد شيئا الا وهو مرجعه ومصدره فالكل اليه راجع والجميع اليه محتاج .

فمن أدرك كل ذلك وتأثرت نفسه به حقاً فإنه لا يعصى ذلك إلا له ولا يخالف له أمراً ولا نهيًا ومن يفعل ذلك فقد ظفر بالسعادة الخالدة وكان عند ربه من المقرين الذين لهم جنات المأوى نزلاً خالدين فيها أبداً

ومعنى كون سبحانه الله صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء أن هذه الصفة هي دعاء جميع المؤمنين من المخلوقات فالصلاة معناها الدعاء ومعنى سبحانه الله تنزيهه الله عن كل مالا يليق به وهو أما أن يكون باسان المقال أو باسان الحال كما قال تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ففى كل شيء من خلقه آية تدل على أنه الواحد . وبها يرزق كل شيء لأن وسائل الرزق الموجودة فى الحياة إنما هي من الله ولا تنال الا بمعونة الله فلو لا أن الله خلق فى الانسان القوة على العمل والقدرة على التفكير وأنزل له الماء الذى يذبت الزرع وخلق له البذر الذى يغرسه وهياً له الوسائل التى يعمل بها ما استطاع أن يظفر بلقمة واحدة من الرزق وهكذا

ولا ريب فى أن من تمسك بتلك الوسائل التى خلقها الله تعالى لحصيل الأرزاق واستعان بحمده استعانة خالصة فإن الله تعالى يسمل عليه الحصول على رزقه ويعينه على ذلك وهو خير الرازقين وسيأتى فى الواجبات الدينية تنمة لهذا الكلام ان شاء الله

علاج الكبر

قد علمت ان الكبر من الصفات النفسية المرذولة الضارة بالمجتمع والأفراد ضرراً عظيماً فلهذا كان علاجها فرضاً لازماً ومحاربته امرأ مقضياً فى نظر الدين والعقل . فمن وجد من نفسه اثرأ لتلك الصفة فإنه مطالب بعلاجها والقضاء عليه بكل الوسائل الممكنة . وامضى سلاح يقضى على هذه الرذيلة أن يعرف الانسان قدر نفسه ويدرك أنه فى حقيقة أمره أضعف من الهباء واقل بجشاً من أصغر الحيوانات حتى أنه ليقتل بالحيوانات الضئيلة — المكروبات — التى لا ترى الا بالمنظار الذى يكبرها اضغافاً مضاعفة وأن ينظر الى مبدئيه ونهايته نظرة مجردة عن الغرور والكاذب كى يسمل عليه احتقار العوارض التى عرضت له فيما بين ذلك من جاء أو مال أو سلطان أو نسب أو علم أو غير ذلك فإنه اذا تأمل فى أمره أقل تأمل يعلم أنه مخلوق من نطفة قدرة تنقذر النفس من رؤيتها ثم تطورت الى قطعة دم ثم الى قطعة لحم تعافها الانفس وتمجها الطباع ومهما كمل خلقه وعمر فى تلك الحياة فإنه لا بد من فناءه وموته فيصبح جيفة قدرة وترايا يطؤه الناس والدواب ومن كان فى اوله نطفة قدرة وفى آخره جيفة وترايا لا يليق به أن يفتر بما بين ذلك من العوارض الزائلة والعاريات الداهية على أن كل شيء يصح للانسان أن يفخر به ويتعاضم بسببه انما هو عرضة للزوال فى حياته . فان كان سبب الكبر وفرة المال فكم من صاحب مال أصبح فقيراً بعدما يتكفف الناس . وان كان سببه الجاه والسلطان فكم من صاحب سلطان ذهب سلطانه وأصبح ذليلاً مهاناً . وان كان سببه القوة فكم من قوى أصبح ضعيفاً . وان كان بغير ذلك من الصفات المعنوية التى تلازم الانسان فى حال حياته كالنسب والعلم . فانك

قد علمت أن هذه الصفات تكون كالعدم اذا لم يتجمل صاحبها بالفضيلة وأن الكبر هو أشد الرذائل التي تذهب بمحاسن تلك الصفات وتقضي عليها . فمن اغتر بنفسه وتكبر على الناس فقد هدم ذلك النسب من أساسه وقضى على فضل آبائه وأجداده شر قضاء لأن الحمد وتكريم الناس لا يكسبان بالأنساب وحدها بل يكسبان بالتمسك بالفضيلة واجتناب الرذيلة . وكذلك ما عند الله من منزلة فانه لا يكسب بالأنساب . لهذا قال الله سبحانه (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) نعم ان للأنساب فضلا في تكوين خلق الانسان . فمن كان من أصل طيب وعصر كريم كانت أخلاقه حسنة وصفاته كريمة . ومن أجل ذلك تحترم الأنساب ويكون لصاحبها فضل على غيره . ومن اغتر بعلمه فقد قضى على نفسه وأضاع ثمرة علمه وأسخط عليه ربه وهو عالم به فكان وزره مضاعفا وجريمته أشد وما أقبح التكبر من العلماء الذين هم قدوة للناس وسند لهم في اعمالهم

فاذا أدرك المرء كل ما تقدم وأيقن أن كل شيء في هذه الحياة صائر الى الزوال ومته الى الفناء وانه مهما عظم امره فانه لا يخرج عن كونه انسانا مخلوقا من ماء مهين وعما قليل سيكون جيفة قدرة وعظاما بالية قترابا يداس بالاقدام فان ذلك يزجره عن التكبر كل الزجر وينهاه عن احتقار خلق الله وايدانهم . ولقد أشار الله عز وجل الى حالات الانسان المذكورة وعجب من كبريائه عليه ودعا عليه بأشنع الدعاء فقال (قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خاقه فقدره ثم السيل يسره ثم أماته فافبره ثم اذا شاء انشره)

فقوله تعالى قتل الانسان دعاء عليه بأشنع الدعاء وما أكفره تعجب من الافراط في الكفر واعراض الكافر عن معرفة ربه وعن معرفة نفسه مع وضوح الأدلة وظهور البراهين ولقد دلت الجملة الأولى على استحقاق هؤلاء الكافرين لأشد أنواع العقاب وهو القتل عرفا . ودلت الجملة الثانية على أنهم انصفوا بأعظم انواع القبايح والمنكرات شرعا وان ذلك الأسلوب لهو من أبدع الأساليب واعلاها بلاغة فان هاتين الجملتين مع قصرهما وإيجازهما قد اشتملتا على نهاية الذم وشدة السخط . ولم يسمع التعبير بمثل ذلك قبل نزول القرآن الكريم . وقوله تعالى من أي شيء خلقه الخ استفهام توبيخ وتحقير هؤلاء الذين يغفلون عن اوضح الدلائل ويتجاهلون اكبر النعم التي انعم الله بها عليهم فيقابلون ذلك بالكفران اذ كيف يصح للانسان ان يغفل عن مبدأ تكوينه وخلقته فانه لم يكن شيئا مذكورا ثم من الله عليه بنعمة الوجود فقدره في احوال متعددة واطوار كثيرة فمن نطفة الى علقه الى مضغة الى عظام ثم انه سبحانه كسا تلك العظام لحما ثم انشأ خلقا آخر وبشرا سويا فبرز الى الوجود ضعيفا كل الضعف لا يقوى على شيء ولا يدرك شيئا سوى ما فطره الله عليه من إلهام يدرك به الآلام وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فسخر له من يحنو عليه حنوا زائدا ويعطف عليه عطفًا شديدا فيرضى لرضائه ويغضب لغضبه ويسر لسروده ويحزن لحزنه لا يرضن عليه بتضحية ولا ييخل عليه ببذل يسر على راحته ويحتمل من أجله المشاق والآلام فلا يستقدر منه فضلة ولا يكره منه عويلا ولا يصرفه عنه أنين ثم يسر الله له سبيل الحياة الدنيوية والأخروية . فيبين له الطريق المستقيم التي ينجو من سلكها ويظفر بالسعادة الدائمة . ويبين له طريق الفجر والضلال

التي يشقى من سلكها ويكون جزاؤه العذاب الأليم . وميزه بالعقل الذي يدرك به الطريق فيختار ما هو أنفع له ويجتنب ما هو ضار به ثم انه جعل له زاجرا يزجره عن سلوك طريق الفنى واتباع الشهوات الفاسدة وهو الموت والفناء فان فيه اكبر عظة لمن يريد أن يتعظ واكبر عبرة لمن يريد ان يعتبر والله در من قال فى رثاء استاذ له

كفى حزناً بدفكك ثم انى * نفضت تراب قبرك من يديا

وكنت وفى حياتك لى عظام * وأنت اليوم أو عظم منك حياً

وذلك حق لا شبهة فيه لأن عظة الموت بالغة مستمرة تقضى على كل لذات الدنيا وآمالها عند من تتأثر بها نفسه . وتزجر الناس عن ارتكاب الموبقات والجرائم ان كانوا يؤمنون بلقاء الله وعذابه وإنه لواقع ماله من دافع لذلك قال تعالى (ثم امامته فاقبره) ومعنى فاقبره شرع فى دفنه ليتوارى جثمانه تكريماً له واحتراماً اياه ثم اذا شاء بعثه وإعادته للحياة الخالدة فى اليوم الموعود بعثه وأحياه وعند ذلك ينال جزاء ما قدمت يده من خير وشر . فاذا كانت الانسان على هذه الحالة ولم يعتبر بها ويتكبر على الله تعالى فلا يؤمن به ويتكبر على خلق الله تعالى ويحتقرهم فهو كالانعام بل هو اضل سبيلا

مضار العجب

قد علمت ان العجب هو استعظام النعمة مع عدم اضافتها الى المنعم وأنه احد اسباب الكبر وقد بينا لك بعض مضار الكبر ومفاسده الكثيرة الضارة بالمجتمع وبالافراد . فمن اجل هذا كان العجب مذموماً على ان العجب سبب ايضا فى الانصراف عن الحق واهمال كثير من صفات الكمال وهجر التربة الصحيحة لأن المعجب بامر من الأمور لا يحب ان يعلم فيه جهة نقص ولا يطبق أن يعرف عنه ذم فهو مفتتن به دائماً فاذا أعجب بعلمه مثلاً فانه يقف عند الحد الذى اعجب به لأنه يعتقد فيه الكمال فيستمر جاهلاً بكثير من الحقائق العلية وربما انتهى به العجب الى اعتقاد الخطأ صواباً والصواب خطأ ولا يستطيع احد أن يصرفه عن ذلك أو يقنعه بالحق مهما حاول من وسائل الاقتناع واذا أعجب بولده فانه لا يستطيع أن يسمع عنه تقيصة ولا يرضى لأحد أن يدلّه على موضع ضعف فيه فيذره يتماهى فى شهواته حتى تصبح داء عضالاً لا يمكن علاجه واذا اعجب بقوته عند لقاء الخصم فان ذلك قد يسوقه الى الهلاك لانه يتأثر بعجبه فيترك وسائل الدفاع المشروعة ويبقى حقه جهلاً وغروراً . واذا اعجب بماله حمله على الطغيان على خلق الله واذلالهم كما مر فى مبحث المسال

فالعجب بهذا المعنى شر على كل حال . وليس من العجب أن يستعظم الانسان نعمة من النعم التي انعمها الله عليه مع اضافتها له سبحانه فانه اذا ادرك ذلك المعنى وتحقق من ان الله هو المنعم الحقيقي

أو هو الذى أجرى النعمة على يد عبد من عباده فانه لا يترتب على ذلك اثر من الآثار الضارة بل قد يكون ذلك مطلوباً اذا ترتب عليه شكر المنعم والفرح بنعمته

فان الذى يعرف ان الله هو الذى رزقه نعمة العلم لا يستكف أن يستزيد منه لان الله تعالى يقول (وفوق كل ذى علم عليم) ومن أيقن أن الله هو الذى منحه العقل الذى يدرك به لا يحجم عن الاصغاء للحق ولا يستكبر عن الانصراف عن الباطل . وكذا من علم أن القوة من الله أو الولد الصالح نعمة من نعمه فانه يدرك أن هذه من الامور التى تعرض لها الزوال فلا يغتر بشيء من المظاهر ولا يأتى أن يستمع للدليل والبرهان وهكذا

ولقد ذم الله العجب فى كتابه العزيز قال تعالى (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فقد أنكر الله عليهم إعجابهم بقوتهم حيث قال بعضهم إنا لن نغلب من قلة . وقال تعالى (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) فهم قد أعجبوا بقوة تلك الحصون وانصرفوا عن التفكير الصحيح فأفضى ذلك إلى هلاكهم .

وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات شح مطاع . وهوى متبع . وإعجاب المرء بنفسه » رواه الطبرانى وغيره . وقال عليه السلام لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة « إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك » رواه أبو داود والترمذى وحسنه ومعنى قوله — حيث ذكر آخر هذه الأمة — أى حيث تكلم عما تؤول اليه من الحوادث والوقائع فأرشدهم عليه السلام الى ما تكون عليه الحالة من السوء بهذه الامارات وهو أن يكون الشح مطاعاً فيكثر بين ضعاف الأنفس غلاظ القلوب لأنها تصبح لكثرة ما تراكم عليها من الذنوب خاضعة لكل صفة من الصفات المردولة . ومتى أصبح الشح مطاعاً فقد تقطعت صلات المودة بين الناس وذهب التراحم وانقضت مواساة بعضهم بعضاً . وذلك شر وبيل كما تقدم فى مبحث الشح . وكذلك اذا اتبع الناس أهواءهم فانت الفضيلة عند ذلك تختفى وتحل محلها الرذيلة ويضيع الحق ويقوى الباطل لأن أهواء الناس إنما تتبع شهواتهم ولذاتهم سواء أكانت حلالاً أم حراماً . يقرتها العقل أو يأبأها . وذلك آية القوضى وأمارة الفساد .

وأما العجب فقد بينا لك أهم ما يترتب عليه من المضار . فاذا وجدت هذه الأمور الثلاثة فالعقل من يشتغل بنفسه ويتبعد عن هذه البيئة الفاسدة لأن علاجها غير مجد وإرشادها لا يفيد .

الغرور

هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع لشبهة فاسدة . فبسبب الغرور في الواقع هو حب الشهوات والميل مع الاهواء والأغراض إلا أن المغرور يبرر إطاعة شهوته بدليل يقنع به نفسه ويسكنها الى عمله ولما كان الحق واضحاً في كل آن . وكان الضار والنافع بينا عند العقل كان دليل المغرورين شبهة فاسدة دائماً لا تحتاج في بطلانها إلا للمجرد لفت وتنبية . ولقد يعجب العقلاء من شبه المغرورين وأمانتهم كما ستعلم من الامثلة التي سنوردها عليك . ويضحكون منها . هذا ومناسبة الغرور للكبر والعجب ظاهرة لأن كلا منهما يقضى الى الاعراض عن الحق والميل مع الاغراض والشهوات الا أن الكبر هو العظمة الناشئة من اعتقاد الرفعة على الغير . والعجب هو استعظام النعمة واعتقاد أنه أهل لها في ذاته مع جحد فضل المنعم وانكار أنها منه . والغرور هو الميل الى ما يشتهى لشبهة فاسدة وكل من هذه الصفات الثلاث مذموم مردول لما يترتب عليه من الاعراض عن الحق والميل مع الهوى

اقسام الغرور

ينقسم الغرور الى اقسام

اولا : الغرور بالعلم كأن يتعلم المرء علوما كثيرة تتعلق بالدين والدنيا فيعتقد أنه قد أصبح عند الله بمكانة عظيمة ومنزلة كبيرة لأن تعلم العلم فضيلة لا يعذب الله معها العلماء فتسكن نفسه الى ذلك ويهمل العمل الذي يقتضيه العلم ويفعل ما تصبو اليه نفسه من اللذات . فسكون نفسه الى ما يلائم طبعه من ترك العمل واتباع الشهوات لشبهة أن العلم فضيلة في ذاته وهو كاف في النجاة غرور شديد وجهل عظيم بالواقع . لأن العلم لم يمدح الا لما يترتب عليه من صلاح المجتمع ومنافع الانسان اما مجرد الحصول على المعلومات بدون تلك الفائدة فانه يضر أكثر مما ينفع خصوصا اذا كان العالم قدوة للناس فانه يكون شرا ووبالا عليهم كما علمت مما مضى . ذلك لان الناس يكونون معه على حالتين احدهما اعتقاد أن ما يفعله العالم يقره الشرع ويرضاه الدين وهذا الحسن ظنهم بعلمائهم ونزاهة عقيدتهم فيهم . وذلك فتنة في الارض وفساد كبير لانه يكون سببا في اغواء الناس واضلالهم حتى جعلهم يعتقدون أن الحرام حلال وأن الباطل حق . ثانيها اعتقاد أن الذي يفعله لا يرضاه الشرع ولكن ما دام العالم قد أقدم عليه وفعله فلغيره المعتبر اذا فعل . أو لعل العالم يعلم أن في الامر رخصة فلم يكن الذنب شديدا وبذا يسهل على الناس ارتكاب الجرائم اقتداء بذلك العالم

وقد ورد في السنة الكريمة احاديث كثيرة في زجر بعض العلماء الذين لا يعملون . فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أسامة بن زيد رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى النار فتندلق أفتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه فيقولون يا فلان ما شأنك ألسنت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأناكم عن الشر وآتية » . قال واني سمعته يقول . يعنى النبي ﷺ «مررت ليلة أسرى في باقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار قالت من هؤلاء يا جبريل قال خطباء أممك الذين يقولون مالا يفعلون » ومعنى — تندلق أفتابه تخرج أعضاؤه — . وكفى بهذا الحديث زجراً لعلماء السوء الذين يقولون مالا يفعلون ويأمررون ولا يأمرون . كفى به موعظة تدمى القلوب وتذيب الأكباد وتفرح الجفون . كفى به نهياً لمن اغتر بعلمه فاهمل ما يجب عليه لمولاه ورضي لنفسه أن تكون أسيرة الشهوات الفاسدة واللذات المحرمة . كفى به تنذيراً للعلماء الذين خرجوا عن طاعة الله وتعدوا حدوده غرورا بالعلم وهم أحق الناس بتمحيص الأدلة وأقدرهم على معرفة الصحيح والفاقد منها . الا ان العلم لا ينفع بدون عمل فاذا ما أهمل العمل به كان شرار على صاحبه وعلى عباد الله تعالى ومن أجل ذلك استعاذ منه نبينا عليه الصلاة والسلام حيث قال «اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان أناسا من أهل الجنة ينطلقون الى أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار فوالله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم فيقولون انا كنا نقول ولا نفعل » رواه الطبراني في الكبير

فإذا يكون حال ذلك العالم اذ ذاك . أليس في ذلك من الخزي والعار والفضيحة ما يكفى في العذاب حتى ولو لم تكن نار ولا سمير . أليس في هذا دلالة على أن هؤلاء الذين لم يطلعوا على سيئاته فلم يقلدوه فيها ودخلوا الجنة بما تعلوه منه من فضائل الدين لو أنهم اطلعوا على تلك السيئات فقلدوه فيها كانت حالتهم على العكس من ذلك وكان هو معهم كن أخبرنا الله عنهم بقوله (وقالوا إنا أطلعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)

فاللائق بالعلماء أن يذكروا ذلك جيداً وأن يحاربوا أنفسهم وشهواتهم بحاربة شديدة فان الله تعالى قد من عليهم بنعمة العلم الذى هو أحسن صفات الانسان وأجلها قدرا كما تقدم في أول الكتاب وليذكروا دائماً أن منزلتهم عند الله عظيمة وأنهم أحق الناس بخشيته والقرب منه فقد قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما يخشى الله من عباده العلماء » رواه الطبراني في الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « الدنيا مامونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما » رواه الترمذى وغيره وقال حديث حسن . وكفى بذلك مدحاً للعلم والعلماء الذين يخشون ربهم ويقدرونه حق قدره فلا يبالون بأعراض الدنيا ولا يحفلون بلذاتها المحرمة وشهواتها الفاسدة اذ هم أحق الناس بذلك وأقدرهم على زجر أنفسهم وتأديبها . وعلى الناس أن يحلوا علماءهم ويعرفوا لهم قدرهم ولا يحل لهم أن يستهينوا بدينهم اقتداء بعالم مغرور فان الحلال بين والحرام بين والناس جميعا مسئولون امام الله تعالى فمن استهان بكبيرة

اقتداء بعالم لم ينف عنه ذلك شيئاً بل لا بد أن يعذبه الله عليها عذاباً أليماً . فعلى الناس أن يعملوا بما يسمعون من العلماء وليس لهم أن يقلدوهم في أعمالهم التي تخالف أفعالهم في الدين فلقد سمعت من الحديث السابق أن أناساً دخلوا الجنة بما تعلموه من عالم دخل النار . ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنى أخاف على أمتي أن يروا ذا علم فيضيعونه ولا يباليون عليه » من حديث رواه الطبراني في الكبير . وقال عليه الصلاة والسلام « تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه » رواه الطبراني في الأوسط

والله المستول أن يصلح من أنفس المغرورين ويهديهم إلى اتباع الحق ونبذ الباطل ويوفق الناس إلى التأدب بأداب الدين إنه سميع مجيب

ثانياً : الغرور بالعبادة فإن بعض العباد قد يقترب ببعض أعماله فيعتقد أنها كافية في نجاته وأنه لا يخرج عليه إذا ارتكب بعض الموبقات كالخسد والحقد والغيبة والاضرار بالناس وما إلى ذلك فتسكن نفسه إلى ما يهواه من الاتصاف بهذه الصفات لتلك الشبهة الفاسدة وهي أن ما يأتي به من صلاة وصيام وتلاوة أو راد وأدعية كاف في نجاته ومكفر لتلك الجنايات . وهذا مغرور أئيم قد زين له الشيطان الشبهة الفاسدة ليورده موارد الهلاك والخسران وربما حبط لذلك عمله من حيث لا يدري لأنه قد يسوقه ذلك إلى أنه يأتي ببعض أنواع العبادة في نظير ارتكاب ما يحلوه من اللذات والشهوات كي تكفرها وتذهب بأثمها فلم يكن مخلصاً لله تعالى في عمل إذ لولا ذلك لقعد عن العمل رأساً وهذا محبط للعمل مضاعف ثمرته . ومن يفعل ذلك فهو جاهل بالدين وأحكامه فلقد بين الدين ذلك بياناً شافياً قال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)

وقال عليه الصلاة والسلام « الناس مجزيون بأعمالهم ان خير خبير وان شر فشر » فمن أدى واجبا من الواجبات الدينية على وجه صحيح خال عن الاغراض الفاسدة فإنه ينال جزاءه خيراً ومن قصر في أداء واجب أو أداء لغرض فاسد أو ارتكب أمراً نهاه الله عنه فإنه ينال عليه عقاباً ولا علاقة لكل واحد بصاحبه فهذا يعاقب عليه وذاك يثاب عليه . وهذا هو العدل الكامل الذي يرضاه العقل وتستريح له النفس فليس من العدل أن من يرتكب جريمة يخلد بها في النار ويضيع عليه كل ما فعله من حسنات - كما يقول بعض الناظرين - كما أنه ليس من العدل أن يعتدى المرء على حقوق العباد أو يهمل بعض حقوق الله في نظير أن يصلي كثيراً أو يصوم كثيراً أو يقرأ كثيراً - ذلك هو الدين الصحيح والحق الصريح وما عداه فهو جدل ومراء . والآية تدل بعمومها على أن الكافر الذي يعمل الحسنات يثاب عليها وهو يعارض قوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقوله تعالى (أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقوله تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية . فهذه الآيات صريحة في أن أعمال الكفار لا يثابون عليها وقد أجيب عن ذلك بجوابين . أحدهما أن الله تعالى يجزيهم بتخفيف العذاب عنهم ويعارض هذا قوله تعالى (فلا يخفف عنهم العذاب) وقوله تعالى (زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) والجواب أن الذين لا يخفف عنهم العذاب والذين يضاعف لهم العذاب هم الذين لا يعملون الصالحات ولا يؤدون ما هم مكلفون به من الواجبات وقوله تعالى (وقدمنا

الى ما عملوا من عمل لمعلمناه هباء منثوراً) معناه أنه لا يفيدهم في محو الخلود عنهم ولا ينجمهم من عذاب الكفر . أما التخفيف فقد ثبت بالسنة الصحيحة فقد ورد أن أبا لهب يخفف الله عنه العذاب لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وعتقه لجاريته ثوية حين بشرته بذلك .

ثانيهما . أن الله يجزيهم على الأعمال الصالحة في الدنيا . فالؤمن يرى جزاء عمله في الدنيا والآخرة والكافر يراه في الدنيا فقط . وقد ورد ما يدل لذلك في السنة . وكما أن الآية تدل على أن الكافر يجزى على حسناته خيراً كذلك تدل على أن المؤمنين يعاقبون على الصغائر لأن مثقال الذرة يتناول الصغيرة حتماً مع أن الصغائر تكفرها الصلاة واجتناب الكبائر كما سيأتي قريباً . والجواب أن الصغائر يجزى عليها فاعلها شرأ إذا لم تكفر . وقد استثناه الله تعالى بقوله (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه) وبقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) فهي خارجة من العموم بذلك . على أنه يصح أن يقال إن أعمال الكافر الحسنة خارجة من العموم بالآيات الأخرى وبقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن) فدل ذلك على أن من يعمل مثقال ذرة من الخير يرى ثوابه في الآخرة إن كان مؤمناً لا كافراً ولكن إذا كان الجمع بين الآيات ممكناً بالتأويل القريب الذي لا تكلف فيه وكان في السنة الصحيحة ما يقتضي ذلك كان من الحسن أن يرجع الى التأويل خصوصاً إذا كان العقل يؤيده فإن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يظلم أحداً شيئاً . فالأعمال الصالحة الصادرة من الكفار يجزون عليها خيراً في الدنيا ويخفف عنهم بها في الآخرة وقد اتفق العلماء على أنهم مكلفون بالمعاملات والجنائيات وإن اختلفوا في تكليفهم بغيرها . ولا معنى لتكليفهم إلا عقاب من تركها وثواب من عمل بها والثواب هو تخفيف العذاب عنهم والعقاب هو زيادة العذاب . فأما التخفيف فيدل له ما تقدم من الأحاديث الصحيحة . وأما الزيادة فيدل لها قوله تعالى (زدناهم عذاباً)

فإذا فهمت ذلك على وجهه الصحيح وعلمت أن لكل عمل جزاء . كان من الغرور أن يعمل الإنسان عملاً ليستغنى به عن غيره . نعم قد ورد في الصحيح أن بعض العباد كالصلاة والصوم والصدقة تكفر الذنوب ولكن التحقيق على أنها تكفر الصغائر . أما الكبائر فانها لا تكفر إلا بالتوبة . والتوبة بالنسبة لحقوق العباد هي التحلل من المظالم بأن يرد إليهم حقوقهم التي اعتدى عليهم فيها أو يسامحونه وسيأتي بيان ذلك في مبحث التوبة في الجزء الثاني إن شاء الله

يدل لذلك ما رواه مسلم من رواية أبي العلاء « الصلوات الخمس كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر » وقد فسر هذا الحديث على وجهين . أحدهما أن الصلاة تكفر الذنوب الصغائر التي تقع في المدة التي بينها وبين الصلاة الثانية وهكذا . ولا تكفر الذنوب الكبائر وهذا لا اعتراض عليه إلا أنه خلاف الظاهر من الحديث لأنه ظاهر في أن اجتناب الكبائر شرط في التكفير .

ثانيهما حمل الحديث على هذا الظاهر وهو أن اجتناب الكبائر شرط في كون الصلاة مكفرة . وهذا يرد عليه أن اجتناب الكبائر وحده يكفر الصغائر كما يدل عليه قوله تعالى (إن تجنبوا كبائر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم) فإذا يكفر بالصلاة بعد هذا . وأجيب بأنه لا مانع من أن يكون للذنوب الواحد مكفران فأكثر . فإن وقعت مترتبة كان التكفير بالسابق منها . وإن وقعت

دفعه واحدة فانه يكفر بما يشاء منها ويزيد للعبد في ثواب ما فيها بمقدار ما يكفر من الصغائر لو وقعت .

فعلى هذا من اجتناب الكبائر وصلى آمن شر الصغائر بالسيئين . أما اذا فعل أحدهما فانه لا يكفيه في تكفيرها لانه اذا صلى مع ارتكاب الكبائر فصلاته لا تكفر الصغائر لاخلاله بالشرط . وان اجتنبت الكبائر ولم يصل لم يكن مجتنباً للكبائر لأن ترك الصلاة من أكبر الكبائر . وهل اجتناب الكبائر كاف في تكفير الذنوب الصغائر من غير توبة أولاً خلاف . والظاهر أنها كافية بدون توبة لأن التوبة تكفر الكبائر والصغائر بلا نزاع فما معنى ككون الصلاة أو اجتناب الكبائر مكفر بعد هذا

وقد استدل من يقول بأن التوبة شرط بما روى معناه البخارى من أن رجلاً من المسلمين كان في السوق فرأى امرأة تبتاع تمرأ فنظر اليها فأعجبته فقال لها ان عندي في دارى تمراً جيداً بثمان بختس فخدعت المرأة بقوله وذهبت معه فلما اختلى بها أهوى الى فيها فقبلها ثم تنبه الى خطورة الحالة وأدرك عظم الجريمة فخرج قاراً من المنزل وهو وجل من عقاب الله تعالى لايئناً له عيش ولا يطيب له نوم وكذلك كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فان خشية الله تعالى كانت ملق قلوبهم . فن غابت عليه شهوة تضيق الدنيا في وجهه ولا يرضى حتى ينال جزاءها في دار الدنيا . فذهب الرجل الى أبى بكر فقص عليه القصة فأمره أن يتوب ويستغفر ولا يخبر النبي ﷺ بخبره فلم تسكن نفسه لذلك وذهب الى عمر فأخبره الخبر فقال له مثل ما قال أبو بكر فلم تطب نفسه فذهب الى النبي صلى الله عليه وسلم وقص عليه الأمر فقال له النبي عليه الصلاة والسلام أهكذا تخاف غازيا — في سبيل الله — في أهله وقد كان زوج هذه المرأة من الغزاة فتعنى الرجل عند سماع هذه الكلمة أنه يكون من المعذبين في النار ولا يزل هذه الزلة فنزل قول الله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل أهذا خاص بى أو هو عام لى ولغيرى من المسلمين فقال له النبي ﷺ بل هو عام لجميع المسلمين .

فلا شك في أن الرجل قد ندم أشد الندم وتاب توبة نصوحاً . وهكذا كل من أقدم على عمل كبيرة وياشر مقدماتها ثم خاف الله تعالى وكف عنها فان الله يغفر له ما عمله من المقدمات . فن عزم على اتيان امرأة وقبلها أو لمسها ثم أدرك عظم الجريمة فكف عنها خوفاً من الله تعالى كانت ذلك حسنة تمحو ما فعله من القبلة والامس أما اذا كف رغم أنه أو لم يجزه عن اتيانها فان هذا لا يكفر كما تقدم فيما يعفى عنه من وساوس النفس وسيأتى له بقية في مبحث التوبة .

هذا ما احتج به القائلون باشتراط التوبة في تكفير الصغائر وهو لا يتج لان لا يلزم من أن ذلك الصحابي قد ندم ندماً شديداً على ما فرط منه ظناً منه أنه قد جنى جناية عظيمة أن يكون ذلك شرطاً في كل من يرتكب صغيرة بدليل آية (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) وحديث مسلم السابق فانها صريحان في أن الصلاة تكفر الصغيرة وأن اجتناب الكبائر يكفرها ولم يرد للتوبة ذكر فيهما .

ومعنى قوله تعالى (أقم الصلاة طرفى النهار) أى أد الصلاة المفروضة في وقتها . وطرفا النهار

صلاة الصبح وصلاة العصر وقوله تعالى (وزلفا من الليل) معناه وطائفة من الليل وهي المغرب والعشاء لأن الزلف جمع زلفة - بضم الزاي - وهي جزء من الليل . وقبل الزلف الساعات جمع زلفة وهي الساعة . ولا ريب أن في ذلك حثا على أداء جميع الصلوات المكتوبة في أوقاتها . فمن صلى الصبح والعصر والمغرب والعشاء في أوقاتها فإن يفوته بعد ذلك صلاة الظهر فلا حاجة لتكافئ يجعل طرفي النهار يشمل صلاة الظهر أيضا . يعني الصبح والظهر والعصر . لأن الظهر وسط النهار لا طرفه

ومن الغرور بالعبادة ما يفعله بعض الجهلة من اظهار العناية بحضور مجالس الذكر وقراءة الأوراد والصلوات ونحو ذلك . وفي الوقت نفسه يهملون حضور مجالس العلم مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : طلب العلم فريضة على كل مسلم . من حديث رواه ابن ماجه وغيره فهم يتركون الفرض الذي يعاقبون على تركه ويحرصون على ما لم يكلفوا به ولو بحثت حقيقة نفوسهم لوجدتهم أنما يحفلون بما يشتمون من رقص وطرب ونحو ذلك . فهم انما يفعلون ما تسكن اليه أنفسهم ولا يعدمون شبهة يبررون بها عملهم وهي أنهم انما يحضرون مجالس الخير والعبادة فلم على ذلك أجر ولو أنهم كانوا يحرصون حقيقة على الأجر والثواب ويرغبون في مرضاة رب العالمين لفعلوا ما ينرض عليهم من طلب العلم الذي كان أسلافهم يرحلون في طلبه الى أقصى الجهات ويتحملون مشاق الأسفار وألم الحرو البرد . ولكنهم يتعمدون هجر مجالس العلم التي أصبحت قائمة في كل مسجد وفي كل بلد ثم هم يسرعون الى حضور الذكر ويظنون أنهم بذلك يعبدون الله . أليس عجيبا أن يقع هذا من المسلمين . أليس عجيبا أن تدخل المسجد فتري المدرس جالسا وحده فلا يجد واحدا يرغب في تعلم ما يجب عليه من دينه ويرضى لنفسه أن يستمر جاهلا . فاذا ما وجدوا هينة أو ضجة طاروا لها فرحا . أليس عجيبا أن يجدوا من يحرص على تهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم ثم يفرون منه فرار السليم من الأجر . ألم يسمعوا قول النبي ﷺ « ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم الا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع » رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه والحاكم . وقوله عليه الصلاة والسلام « من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع » رواه الترمذي وقال حديث حسن . وقوله عليه الصلاة والسلام « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا الى الجنة وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده . ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » من حديث صحيح رواه مسلم وغيره

فهل لهؤلاء المغرورين معذرة بعد هذا . هل لهم أن يعملوا أنفسهم بالأماني الفارغة بعد ما ظهر لهم من البراهين القاطعة والأدلة الواضحة . فهذا هو قول نبينا عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الأمين وهذه هي تعاليمه الرشيدة تأمر الناس بتعلم العلم وتحثهم على الخروج من أسر الجمل . فانه عيب قاضع وشر لا يرضاه لنفسه الا أخس الخلق وأحقهم الذي هو أقرب شباها الى الحيوان الانعجم منه الى الانسان . فاذا لم يكن في تعلم العلم سوى الخروج من عار الجهل ليكفي به فائدة تبذل من أجلها الأموال وتضحي في سبيلها الراحة . فما ظلك اذا اقترن بتلك الفائدة ذلك الانجر العظيم

والتواب الجزيل الذى أعد الله لطالب العلم . أليس فى ذلك ما يبعث هؤلاء الذين قست قلوبهم وعصيت بصائرهم الى ترك الاثم وهام الفارغة والتمسك بالوسائل النافعة التى تفضى بهم الى سعادة الدنيا والآخرة . هل لهم أن يعصوا شهواتهم وشياطينهم ويطيعوا الله ورسوله فيسمعوا ويعملوا ما فيه خيرهم وفلاحهم .

اللهم انا نسألك أن توفق عبادك الى ما فيه رشدهم وصلاحهم انك سميع الدعاء

ثالثا : الغرور بانفاق المال كأن ينفق جزء منه فى بعض أعمال البر التى يميل اليها طبعه وتشتبهها نفسه ويمسك عن الأعمال الواجبة عليه ديناً وعقلاً كما اذا كان يشتبى بناء مسجد أو معهد أو مصحح يخلد له ذكره ويحفظ له اسمه ويزيد فى احترامه بين الناس . وفى الوقت نفسه يترك زكاة ماله المقروضة عليه أو يقصر فى الانفاق على أهله ويهمل صلة رحمه أو يجد اليتامى والمساكين من جيرانه وقبيلته يتضورون جوعاً فلا يعطف عليهم بما يسد رمقهم . ولا ريب فى أن هذا مغرور لأنه فعل ما تسكن له نفسه ويميل اليه طبعه لشبهة فاسدة . وهو أن ما فعله بر وخير يغنيه عن باقى الواجبات ويكفى لنجاته عند الله تعالى مع أنه لم يفعل فى الحقيقة الا ما يرضى شهوته من أمر لم يكلف به وضعى الواجب عليه الذى لا بد أن يسأل عنه يوم تبلى السرائر . ولقد قلنا لك فيما تقدم ان التكاليف الشرعية لا يغنى بعضها عن بعض . ولا يكفر بعضها بعضاً الا ما نص عليه الشارع من ذلك . فانفاق المال له جهات أمر الشارع بانفاقه فيها كزكاة المال والنفقة على الزوج والوالد والأهل وكالكفارات التى قدرها الشارع فى باب الصيام والايمان والنذور ونحو ذلك على أن يكون انفاقه طبقاً للنظام المبينة فى الفقه الاسلامى أحسن بيان فاذا تعدى تلك النظم كأن أنفق المال فى غير حقه فانه لا يرفع عنه شيئاً من المسئولية عند الله تعالى

فن بنى مصححاً أو شيد مسجداً أو معهداً من مال حلال ولم يظلم فى ذلك أحداً من عباد الله . فقد فعل خيراً كثيراً يؤجر عليه بنسبة فائدته للمجتمع الانسانى أو لجماعة من عباد الله . ولكن هذا لا يرفع عنه عقوبة ظلم الناس فى أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ولا يكفر عنه شيئاً منها كما لا يرفع عنه شيئاً من حقوقهم المتعلقة بزكاة المال أو الانفاق من المفروض عليه لهم . وانما يرفع حقوق الله تعالى وحقوق عباده التوبة والندم . والتوبة بالنسبة للعباد هى رد حقوقهم اليهم أو استسماحهم فيها . وبالنسبة لله تعالى الكف عن الجريمة والعزم على عدم العودة اليها فهذه هى طريق النجاة الصحيحة التى بينها الله فى كتابه الكريم . وشرحتها لنا السنة شرحاً وافياً فى غير موضع . فلا يصح بعد ذلك أن يحمل الناس سبيل الصواب أو يتجاهلوا مرضاة لشهواتهم ثم يتشبثون بالدين ويقولون انهم يعملون الخير الذى يدوم ثوابه فيكفر لهم ما فرطوا من الحقوق والواجبات . فالواجب على من يريد أن يرضى الله حقاً أن لا يطيع شهوته وهواه بل يفعل ما أمره الله به فيؤدى ما عليه من فرائض وواجبات ويحسب ما نهاه الله عنه فلا يظلم أحداً شيئاً فان كان ذا مال أخرج زكاته وأنفق على أهله وأقاربه بما يناسب حالهم وأدى فريضة الحج ونحو ذلك بما هو مفروض عليه ثم بعد ذلك يفعل من أعمال البر ما يستطيعه على أن يقدم الأنفع فالأنفع للناس سواء رضيت نفسه أو سخطت لأن من يرى

اليتامى تتقاذفهم المحن ويرى البؤساء تحمل بهم المصائب . فيضن عليهم بما يساعدهم على القوت الضروري ويبخل عليهم باليسير من ماله . ثم يبنى بعد ذلك مسجداً يفخر به أو يحجج حجاً غير مفروض عليه ليقال إنه كثير الحج فهو مغرور لا ثواب له على عمله لأنه إنما يعمل ليرضو شهوته لا ليرضى ربه . ولو أراد مرضاة ربه حقاً لاتفق ذلك المسال على اليتامى إربابهم تربية صالحة كي لا يكونوا أعضاء فاسدة تؤذى الجماعة وتضر الناس . لو أراد مرضاة ربه حقاً لاحتسن إلى الأراامل والمساكين الذين قلب لهم الدهر ظهر المحن فلم يجدوا قلباً رحماً يحنو عليهم ولم يظفروا بالضرورى من القوت فى معظم الاوقات . لو أراد مرضاة ربه حقاً لم يترك لأحد عليه حقاً من الحقوق ومن كان له فى عنقه مظالم تحال منه بذلك المسال حتى تبرا ذمته وباقى الله آمناً مطمئناً . لو أراد مرضاة ربه حقاً لعمل بقوله (اتقوا الله الذى تسألون به والأرحام) فوصل رحمه وأنفق عليهم من ذلك المسال ما هم اليه محتاجون .

هذه هى قوانين المال الشرعية التى من حاد عنها فقد ضل سواء السبيل ومن تمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .

رابعا . الغرور بالامانى السكاذبة والآمال الفارغة كغرور المنافقين بأمانهم التى من جملتها الطمع فى ضعف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وانخداعهم وتلاشيهم . فكانوا يظهرون أنهم مع المؤمنين مجارة للحالة الحاضرة التى يرونهم عليها من القوة ولكنهم يقعدون عن نصرتهم ومجاربة عدوهم تبعا لما تميل اليه طباعهم وتسكن اليه أنفسهم من بغضهم وعداوتهم ويعللون عملهم هذا بالامانى الفارغة وهى أن المسلمين يتخذون ويقضى عليهم أو أنهم إذا اتصروا فإن الرسول يعفو ونحو ذلك من الشبه الفاسدة التى لا تركز إلى حقيقة ثابتة أو برهان واضح .

لهذا قال الله تعالى لهم (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) . فتنتم أنفسكم أهلكتموها بالنفاق . تربصتم انتظرتكم الدوائر التى تحيق بالمسلمين فتقضى عليهم . ارتبتم شككتكم فى أمور الدين حتى جاء أمر الله — الموت — والغرور الشيطان . وهذا خطاب للمنافقين المذكورين فى الآية التى قبل هذه بقوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم) الخ

خامساً : الغرور بالدينياوزينتها والانصراف عن الآخرة وشر ما يترتب على هذا الكفر بالله تعالى وعصيانته كما فعل المشركون وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فقد قالوا إن لذات الدنيا محقة والحصول عليها مضمون وهانحن أولاء تتمتع بها فعلا . أما الآخرة فهى مشكوك فيها ولذاتها غير محقة فكيف نترك المحقق المضمون للمشكوك فيه وكيف نبيع العاجل المحقق بالآجل المشكوك فسكنت أنفسهم لما يوافق طبعهم ويلائم أهواءهم بناء على تلك الشبهة الفاسدة وكفروا بالله تعالى وكذبوا رسله . ولا ريب فى أن هؤلاء كالأنعام بل هم أضل سبيلا لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة فى أخرج المواطن وأدق المواقف التى يترتب عليها

شفاء المرء وسعادته دائماً هو من أكبر المغرورين وأشد الجاهلين ولولا أنصف نفسه لعلم أن زينة الدنيا زائلة معها طال أمدّها وأن الانسان لابد أن يفتى منها امتد أجله وذلك لا يستطيع إنكاره أحد لأنه مشاهد بحس . وليس من المعقول أن يخلق الله الانسان ويمتعه العقل والعلم ثم يجعله تراباً من غير أن يكون ذلك وسيلة لاعادته في شكل أكمل وإيجاده على نظام آتم . وإلا كان مثله كمثل من يبنى قصراً بديع الصنع متين البناء ثم يأمر بهدمه وتركه خراباً عبثاً بدون أن يتعلق له بهذا غرض كعادته على صورة أجل وفي حالة أكمل ومن يفعل ذلك فهو ناقص العقل يسخر منه كل من يعلم عنه هذا . فهل يليق بالاله الذي ليس كمثل شيء أن يخاق الانسان في أحسن تقويم كما قال هو سبحانه . ونحن عليه بالعقل والعلم الذي هو من صفات الألوهية ثم يمتنه ويتركه تراباً بدون أن يعيده على حالة غير قابلة للبقاء . لا ريب في أن ذلك محال لا يرضاه لنفسه إلا الحيوان الذي لا عقل له ولا علم عنده . ومن تأمل في أنواع المخلوقات فانه يجد كل نوع منها يرتقى بطبيعته إلى ما هو أعلا منه . فالجماد يرقى إلى نبات . والنبات يأكله الحيوان فيصبح جزءاً منه ويصير حيواناً . والحيوان يأكله الانسان ويصير جزءاً منه وهكذا . فهل يحرم الانسان من الرقي وهو أفضل الأنواع . لا شك في أن قيام الانسان لامتني له إلا الاستعداد لتكوين آخر فيعيدّه الله تعالى كاملاً مستعداً للبقاء الدائم والخلود المستمر . بذلك أخبرت الرسل الذين برهنوا على أنهم من عند الله تعالى بالبراهين القاطعة . ومن يؤمن بالله فانه يكون جاهلاً كل الجهل إذا أنكر اليوم الآخر لأنه لا يعقل أن يكون لأحد الملوك رعية ثم يتركهم يعتدى بعضهم على أعراض بعض وأموالهم وأنفسهم بدون أن يأمرهم وينهاهم ويجزى المحسن ثلي إحسانه والمسيء بأسائه . ومن ينكر الاله فهو شر من الدواب الصم البكم الذين لا يعقلون لأن لله في كل شيء آية تدل على وجوده ووحدانيته كما سيأتي كل ذلك موضحاً في الواجبات الدينية في الجزء الثاني إن شاء الله

فمؤلاء المغرورين الذين اطمأنوا للحياة الدنيا ورضوا بها وكفروا بربهم ولم ينظروا إلى أنفسهم ولم يتفكروا في خلق السموات والأرض واستندوا إلى تلك الشبهة الضعيفة الفاسدة سيعذبون أنهم خسروا خسراناً ميبساً وأنهم سيعذبون عذاباً خالداً مستمراً تلقاء نعيم زائل فان لم يكن بجانب العذاب شيئاً مذكوراً

ومثل الكافرين في الغرور بالدنيا ولذاتها عصاة المؤمنين الذين هجروا الأعمال الصالحة وارتكبوا الجرائم والموبقات بدون أن يحسبوا للآخرة حساباً . وهؤلاء قد آثروا الفاني على الباقي وسكنت أنفسهم إلى ما تميل اليه طباعهم الفاسدة من التمتع باللذات المحرمة والشهوات المهلكة والاعتداء على أعراض الناس وأموالهم ودمائهم . وإذا قيل لأحدهم إن عملك هذا ستجزى عليه أشد الجزاء في يوم يجعل الولدان شيباً أعرض ونأى بجانبه وربما سخر من يقول له ذلك معطلا نفسه ببعد ذلك اليوم وأنه كيف يترك الحاضر اللذيذ من أجل الغائب البعيد . فهو كالكافر في هذا تماماً إلا أنه لا يخلد في النار إن مات وهو مؤمن . وكفى به ذمماً أنه مشارك للكافرين في الاعراض عن الآخرة . وكفى به زجراً أنه سيعذب على ما كسبت يده عذاباً شديداً وسيقتص منه رب العزة على ما انتهك من محارم وارتكب من مظالم . وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون

سادساً . الغرور بالله تعالى من الكافرين وعصاة المؤمنين . فأما الكافرون فيقولون لو كان هناك معاد كما يقول الرسل لكانوا أحق بشمراته من غيرهم وأوفر منهم حظاً فيه . لأنهم عظماء في ذاتهم وأهل للنعم بدليل أن الله قد أنعم عليهم في الدنيا . فإذا كانت هناك آخرة لم تسلب تلك النعم عنهم . وقد ذكر الله ذلك عنهم في كتابه العزيز قال تعالى (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب) الى قوله (فأصبح يقطب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) ومعنى هذا أن أخوين في بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فكان المؤمن ينصح للكافر ويحذره من الغرور بالدنيا ويخوفه بطش ربه والكافر لا يسمع لنصيحته ويقول له على فرض وجود معاد فانه يكون لي فيه أوفر نصيب . فأظفر بخير من النعم الذي أنا فيه فلما أهلك الله حديقته ندم على ما أنفقه عليها من مال وعرف أنه كان مغروراً وأن النعم لا تعطى لمن يعتقد في نفسه العظمة في الدنيا فضلاً عن الآخرة .

ومن ذلك ما وقع من العاص بن وائل القرشي أحد المعتنقين المنكرين للحشر مع خباب بن الأثر رضي الله عنه قال خباب كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أنقاضه فقال والله لأقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث قال فأننى إذا مت ثم بعثت جنتنى وثم مال وولد فأعطيك . فأنزله الله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالا وولداً) الى قوله (ويأتينا فرداً) رواه البخارى ولم يغيرهما - القين الحداد - وثم مال - هناك - فالعاص بن وائل ظن أنه عظيم في ذاته وأنه أهل للنعم في كل آن ومكان فعلى فرض وجود بعث فانه سيكون له هناك أوفر حظ وأكبر نعمة وليس وراء هذا من غرور لأن الذى يصرف النظر عن الدلائل الصحيحة ويرتكز على الشبه الضعيفة في هذه المواطن - كما ذكرنا آنفاً - لهو من أكبر المغرورين وأشدّهم ضللاً وخطأ . ولهذا رد الله عليه بقوله (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً) فانه لا يجرأ على هذا القول إلا من استوثق كل الثقة وتأكد كل التأكد . إما بالاطلاع والمشاهدة . وإما بأخذ العهد والميثاق وإلا فهو جاهل أحق مغرور .

ولقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله (ولقد فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) فهؤلاء المغرورون قد نظروا إلى ضعف المؤمنين وفقرهم فاحتقروهم ولم يصدقوا أن الله تعالى يختارهم من بينهم ويفضلهم عليهم . وقال تعالى حكاية عنهم (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) فهم يعتقدون أن لهم المسكنة الرفيعة على أى حال . وأحق بالسعادة حيثما وجدت . وذلك جهل فاضح وغفلة عظيمة عن سنن الله تعالى في خلقه . فانهم لو تأملوا قليلاً لعلوا أن العزة في الدنيا تأتي وتزول . وكذلك الغنى والفقر والقوة والضعف والسعادة والشقاء . ونحو ذلك فانها كلها تتداول بين الناس فلا يدوم أحد على حال . ولقد جعل الله لكل شئ سبباً فمن تمسك به ظفر بمسيبه وإلا فقد حاول المحال . وإذا كانت الحالة هكذا في الدنيا فكيف يطمعون أن ينتبوا على منزلتهم في الآخرة مع الكفر بالله وعصيانه وترك الوسائل التي أمرهم بالتمسك بها . ألا إن ذلك هو الخسران المبين

وأما عصاة المؤمنين فانهم يرتكبون الجرائم والموبقات ويقولون إن الله كريم وأنا نرجو عفوه ولا ريب في أن الله كريم حقاً وأن كل خلقه يرجون رحمته . ولكن ذلك الكريم قد أرسل لنا رسلاً وأنزل عليهم كتباً تشتمل على أوامر ونواهي وعظائم وأمثال وبين لنا طريق السعادة وطريق الشقاء ولم يترك شيئاً من الفضائل التي تليق بالإنسان إلا حث عليه وأمر بالتمسك به ولم يذر شيئاً من الرذائل الصارة إلا نهى عنه ونهى عليه . وقال لنا على لسان هؤلاء الرسل إن عملتم بما أمرتم به واجتنبتم ما نهيتكم عنه وسلكتم سبيل السعادة وتجنبتم طريق الشقاء منحتكم رضوانى وأحلتكم محلاً لا تشقون فيه أبداً فأدخلتكم جنات النعيم وأعطيكم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت . وإن أنتم خالفتم أمرى ونهى واتبعتهم أهواءكم غضبت عليكم . وإن غضبى لشديد وعقابي لأليم . فمن غضبت عليه أحلته محلاً دائماً الشقاء وعذبه بنار حامية وقودها الناس والحجارة

ولا ريب في أن قول الله صدق لا يتخلف أبداً . وإن كان هو سبحانه صاحب السلطان المطلق والارادة الكاملة فإن شاء أن يعفو عن من يشاء من عباده فعل . ولكنه لم يعرفنا وسيلة لعفوه سوى التوبة من الذنوب والرجوع إليه بعد التمرد والعصيان . فمن ذا الذى يخاطر بنفسه ويقذف بها في الشهوات الفاسدة واللذات القاتلة فيغضب عليه ربه ويعرض نفسه لعذاب جهنم طمعاً في عفوه الذى لا يعرفه ولا يدري إن كان يمنح لفرد من الأفراد أو أكثر بل لا يدري إن كان يقع لأحد من المجرمين أو لا . حقا إن الله قال في كتابه الكريم (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقال (والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً) فهو إن شاء غفر ما عدا الشرك لأنه سبحانه مالك كل شيء وصاحب السلطان الذى لا ينازع ولكن من ذا الذى يشاء الله له الغفران . ومن ذا الذى يستحق عفوه . لعله من هؤلاء الذين قال الله فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) فالتائبون هم الذين يستحقون عفوه الله عما فرط منهم من الجرائم فانه سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات

ذلك هو الدين وما عداه تمسك بالمحال وتعلل بالأمانى والآمال وما كان الله ليرسل الرسل لعباً ولهوأ وينزل الكتب تسلياً وهزواً . ولكن حذر وأنذر ووعد وأوعد . فمن أطاع فقد فاز فوزاً عظيماً . ومن عصى فقد خسر خسرانا مبيناً . يرشدك الى هذا كتاب الله تعالى فانه وعد بالمغفرة التائبين الذين يعملون الصالحات قال تعالى (وإني لغفار لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى) . وقال (والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال (إن رحمة الله قريب من المحسنين) الى غير ذلك من الآيات التي فيها وعد بالمغفرة أو وعد بالجنة ونعيمها فانه مشروط فيه الايمان والعمل الصالح . وسيعلم المفرورون ذلك عند ما يرون العذاب بأعينهم ويتأكدون أن الجنة لا تمنال بالأمانى وأن النار لا تجتنب بارتكاب الجرائم وإطاعة الشهوات فيقولون كما أخبر الله عنهم في كتابه الكريم . (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) فهم سيذعنون بأن العمل الصالح هو الذى عليه مدار السعادة وأن العمل السيئ هو الذى عليه مدار الشقاء . وما عدا ذلك فهو غرور وأحلام . فكيف لا يتدبر المؤمنون في قول رب العزة . وكيف تقسوا قلوبهم

وتنظم بصائرهم وتستولي عليهم شهواتهم فتصمم وتعمى أبصارهم . ألم يسمعوا قول الله تعالى (يوم توفى كل نفس ما كسبت) ويدركوا أن هذا كلام رب العزة الذي لا تبديل لكلماته ولا محو فيها فلا بد من أن تنال كل نفس جزاء عملها من خير وشر بدون أن يظلم أحد شيئاً . فسا بالهم يعرضون عن قول ربهم هذا كأنهم به غير مؤمنين . ألم يسمعوا قول الله تعالى (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً)

فواجب على المسلمين أن يتدبروا ذلك وأن تتأثر به قلوبهم فلا يحيدون عن العمل به لأنه هو وحده وسيلة السعادة الدائمة والنعيم المقيم . ولقد منّ الله تعالى على المؤمنين فوعدهم بقبولهم إذا تابوا وأنابوا . فلا عذر للبصرين على ذنوبهم المأسورين لشهواتهم ولذاتهم بعد ذلك فان الله تعالى قال لهم (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) إنه هو الغفور الرحيم وأنبيأوا إلى ربكم) فمن سمع قول الله هذا ولم يسارع إلى التوبة والانابة إليه فهو خاسر غليظ القلب لا يحق له أن يرجو رحمته بعد ذلك . أما من تاب من ذنوبه وأناب إلى ربه فإنه جدير أن يرجو رحمته وغفرانه وهو الغفور الرحيم

الحقد والحسد

تعريفهما

الحقد هو الانطواء على البغضاء بأن يستقل قلب الحاقد من محقد عليه وينفر عنه ويبغضه وهو نتيجة الغضب وثمرته . لأن الغضب إذا نار وطفئ فإنه لا يبدأ إلا بأمرين . أحدهما الحلم وهو يستلزم تقدير الأمور والتدبر في عاقبة الغضب وما يجر إليه من المصائب والبلاء . وهذه درجة رفيعة ومنزلة سامية لا ينالها إلا عظماء الرجال الذين تملك عقولهم أبدانهم كما سيأتى في مبحث الحلم . ثانيها النشفي والانتقام من المغضوب عليه . فمن نار غضبه ولم يكن حليماً وعجز عن البطش بمن أهاجه انقلب غضبه حقداً بالمعنى الذي ذكرناه

وأما الحسد فهو تمنى زوال نعمة الغير فلا يحب أن يرى على من يحسده نعمة التي حسده من أجلها . وهذا إحدى نتائج الحقد وثمراته المترتبة عليه فإن من يحقد عليه يتمنى زوال نعمته وبغائه ويتم عليه ويعتدى على عرضه ويشمت فيه لما يصيبه من البلاء وغير ذلك من الصفات المذمومة التي لاتليق بالإنسان . وكفى بالحقد ذماً أن يكون الحسد ثمرة من ثمراته واثراً من آثاره

مضار الحسد

شر مضار الحسد وبلوائه التي تؤذي الافراد والجماعات ان الحاسد اذا كان ذا بطش وقوة فانه لا يبالي ان ينكل بمحسوده شر تنكيل فاذا امكنه القضاء على نعمته باى وسيلة من الوسائل المحرمة فانه يسارع الى ذلك حتى ولو ادى به عمله الى الاعتداء على بدنه وعرضه وماله . لان داء الحسد اذا تغافل في النفس وكان الحاسد شريراً لا وازع له من دين او مروءة فانه يكون من شر الصفات التي يترتب عليها ظلم الابرياء والاعتداء على عباد الله . فاذا كثر الحاسدون الاقوياء في أمة من الأمم سادت فيها الفوضى واختل النظام واضطرب حبل الامن وكان الحسد من شر الادواء التي منيت بها . أما اذا كان الحاسد ضعيفاً لا يستطيع أن يطش بالمحسود ولا يسعه أن يلقاه وجها لوجه فانه يترصص الدوائر به ويتنزه القرض للنيل منه بلسانه فلا يتعفف عن اخلاق الكذب عليه ورميه بالفحشاء زورا وبهتانا ولا يحجم عن النم عليه عند من يؤذيه ولا يتأخر عن غيبته وذكره باقبح الاوصاف وأسوأ العيوب . كل هذا يترتب على الحسد وما ذا يجنى الحاسد من وراء حسده من اللذات انه لا يجنى شيئاً أكثر من هذا الذي سمعت من مظالم الناس فاذا اعجزه الخوف من المحسود عن ذكره بالسوء في غيبته أيضاً فان قلبه يصلى ناراً تطفى ويعذب عذاباً اليماً . فهو من أشقى خلق الله واتعسم يشغل نفسه بما لا فائدة فيه ويعذبها بدون لذة يجننها سوى أنه فاسد الطبع سيء التربية وذلك هو البلاء المبين . وكفى بالحسد ضرراً أن النعمة لازمة له وأثر من آثاره وقد علمت مالها من المفاسد والاضرار . من اجل ذلك حرمت الشريعة الاسلامية الحسد وذمه الله تعالى في كتابه الكريم فقال (ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الى غير ذلك من الآيات وقد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام ان يستعيز من شر الحاسد في سورة الفلق وقال صلى الله عليه وسلم « ليس مني ذو حسد ولا نعمة ولا كهانة ولا انا منه ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » رواه الطبراني والبهتان هو أن يقول في شخص مالم يفعله ولقد اشار نبينا عليه الصلاة والسلام بتلاوة هذه الآية الى ما يترتب على الحسد من الشرور والمفاسد فان الحاسد لا يبالي ان يؤذي المحسود ويقول فيه الزور . والبهتان كما علمت مما تقدم . وكفى بالحاسد ذماً ان رسول الله ﷺ يتبرأ منه ولم يرض ان يكون منسوباً اليه فان دينه يأمر بالفضيلة وينهى عن الرذيلة . وكفى به زجراً ان يكون قد احتمل اثماً مبيناً بفعله ما يترتب على الحسد من الاضرار بعباد الله لان جزاء الآثمين جهنم وبئس المهاد

اسباب الحسد

ينشأ الحسد غالباً من امور خارجة عن طبيعة الحاسد واهم هذه الامور الكبر والعجب والعزة والتزاحم على ما تستلزمه الحياة من مال وجاه والخوف من فوات اللذات والشهوات فان كل

هذه الصفات العارضة على نفس الانسان تستلزم الغضب وهو يستلزم الحقد والحسد كما علبت آ نفا وقد ينشأ الحسد بسبب داخل فى نفس الحاسد كأن يكون شريرا بطبيعته قد سرى اليه خبث النفس بقانون الوراثة او انتقل اليه من البيئة التى ربي فيها فتراه مفضوا على العداوة والبغضاء للمحسود بدون سبب ظاهر سوى الخبث وسوء التربية . وهذه الامور كلها تنتج العداوة والبغضاء وهى رأس كل شر ومصدر كل بلاء ولقد بينا لك كيف ان الكبر يستلزم الحسد وكذلك العجب فى محله اما التواضع على شئون الحياة فالامر فيه محس ومشاهد لنا فى كثير من الناس خصوصا طلاب المال باسباب متشابهة كالتيجار والصناع والزراع فانك ترى التحاسد كثيرا بينهم وقد يذهب الحسد ببعض الحاسدين منهم الى الدرك الاسفل من الخسة فيحسد غيره على ربح خبيث كالكسب بالميسر او الغش او النصب والاحتيال والتدليس . وكذلك الحال فى طلاب الشهوات واللذات فان من يظفر منهم بلذة يحسده الآخر عليها حتى ولو كانت محرمة ومن هؤلاء فريق كالانعام بل هم اضل سبيلا فان بعضهم يحسد شريرا مثله على وصوله الى امرأة فاجرة او غلام فاسد الاخلاق . وكثيرا ما يقتلون من جراء ذلك وذلك هو الخزى المبين

مراتب الحسد

يمكنك أن تفهم مما تقدم أن صفات النفس المردولة لها ثلاث حالات الحالة الاولى ان تترتب عليها آثارها السيئة وهى انما يتفاحش شرها بتفاحش ما يترتب عليها من تلك الآثار فكما اشتد ضررها للفرد أو للجماعة اشتد ذمها وكبر اثمها وعظم جرمها . الحالة الثانية أن توجد الصفة ولكن لا يترتب عليها شيء من تلك الآثار وهذه تنقسم الى قسمين . الاول أن يكون ذلك ناشئا من عجز المتصف بها عن فعل ما يترتب من الشر بحيث لو امكنه أن يفعل لا يتأخر ولا يبنى وهذا يكون مذموما يعاقب عقابا شديدا على هذه الصفة . وكذلك يعاقب على الجرائم التى لم يباشرها بعجزه وإن كان عقابه عليها أهون من عقاب الذى باشرها فعلا . الثانى أن يكون له وازع من دين وخوف من الله فيجاهد نفسه ويكفها عن إيذاء خلق الله بالقول والفعل وهذا يكون بمدوحا وإن كان يلزمه أن يعالج نفسه حتى تبرأ من تلك الصفة ويستريح من شرها . وقد علبت فيما مضى أن كل صفات النفس قابلة للزوال فليس للانسان عذر فى ترك الأمراض النفسية حتى تصبح داء عضالا يتعسر زوالها . الحالة الثالثة أن تترتب عليها آثار نافعة للفرد أو للجماعة وهذه الحالة شاذة غير طبيعية لأن صفات السوء يندر أن يترتب عليها خير وهى فى هذه الحالة تكون بمدوحة بطريق الاستثناء بناء على قاعدة جاب المصلحة ودرء المفسدة فان نظر الشريعة الاسلامية فى جميع قضاياها انما هو الى مصلحة الافراد والجماعات وقد يحاول بعضهم عندهذا تسميتها باسم آخر وهو ليس بضرورى كما علبت فى مبحث الكذب لان المعول على المعانى والاغراض المترتبة عليها لاعلى الالفاظ والعبارات

اذاعلبت هذا فاعلم أن للحسد ثلاث مراتب . المرتبة الاولى هى أن يتبنى زوال نعمة الغير

لنتقل اليه فيعمل على ذلك بالوسائل المحرمة الظالمة ويسعى في إساءته بكل ما يتيسر له وهذه الحالة هي الغالبة في الحسد خصوصا المتزاحمين في صفة واحدة فان من يريح منهم رجحا كبيرا أو يظفر بلذة يرقبها غيره فان ذلك الغير يحسده على ما حصل عليه من ذلك ويسعى في حرمانه من هذا الربح ليظفر به هو ويكثر ذلك في طلاب المناصب والجاه كما علمت في القيمة . المرتبة الثانية أن يجد من نفسه الرغبة في زوال النعمة عن المحسود سواء انتقلت اليه أو لغيره ولكنه جاهد نفسه وكفها عن فعل ما يؤذيه خوفا من الله تعالى وكرهية في ظلم عباد الله ومن يفعل هذا يكون قد كفى شر غائلة الحسد ودفع عن نفسه العقوبة الآخروية ولكن ينبغي له أن يعالج نفس الصفة حتى يبرأ منها . المرتبة الثالثة أن يتمنى زوال نعمة الغير بفضله لسبب مشروع كأن يكون ظالما يستعين على مظالمه بهذه النعمة فيتمنى زوالها ليريح الناس من شره وهذا يسمى حسدا مذموما وان كان تعريف الحسد يشمل له لأنه تمنى زوال نعمة الغير ولكنه في هذه الحالة يكون ممدوحا كل المدح بل قد يكون لازما اذا ترتب عليه عمل يرفع هذا الظلم ويردع ذلك الظالم . هذه هي مراتب الحسد وليس منه أن يتمنى أن يكون له نعمة مثل نعمة أخيه من غير أن يحب زوالها عنه وهذا يسمى غبطة وهي ممدوحة لاشئ فيها الا اذا ترتبت عليه وساوس نفسية وخواطر شيطانية تجر الانسان الى مواضع الخطر من حيث لا يدري كأن يقول في نفسه أنا أحق منه بهذا ثم ينتقل من ذلك الى الغيرة منه وبغضه وحسده وهو لا يدري بخير للانسان أن لا ينظر الى ما في أيدي الناس بل يسلك هو السبل التي قدرت له في هذه الحياة بجد ونشاط وما يصل اليه من نعيم الحياة ولذتها بحمد الله عليه ويقنع به . اما كونه يتمنى أن يكون له قصر مثل قصر فلان أو زوج مثل زوجه أو ولد صالح مثل ولده أو نحو ذلك فانه يشغل به نفسه من غير جدوى . نعم اذا كان ذلك التمنى يبعثه الى العمل ويدفعه الى تقليد غيره في جده ونشاطه كي يحصل على ما حصل عليه — وهو معنى التنافس — فهو حسن ممدوح خصوصا اذا كان في اعمال الخير الذي يأمر بها الدين فان التنافس فيها مطلوب والتزاحم عليها ممدوح وفيها فليتنافس المتنافسون

علاج الحسد

ينبغي ان يعالج الحسد بمعالجة اسبابه فان كان سببه الكبر أو العجب أو حب الرئاسة فانه يعالج بعلاج هذه الصفات فتى قدر على ازالتها فان الحسد المسبب عنها يزول بزوالها طبعاً . نعم ان علاجه في هذه الحالة يكون شاقاً لأن من اجتمعت فيه هذه الصفات أو بعضها فلا غرو أن يحتاج في علاجها الى جهاد طويل شاق وصبر على محاربة نفسه حتى يكبح جماحها ويردها عما تطلبه تلك الصفات من المفاسد وتقتضيه طبيعتها من الاضرار بالناس . ولكن المسلم الذي يدين بالاسلام حقاً ويعتقد ان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور وهناك يحجزى كل امرء بما كسبت يده فانه لا يحجم عن علاج نفسه ولا يترك تلك الصفات الرديئة التي تفتك بالانفس كما تفتك الاوبئة فتوردها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة . واما الحسد الناشئ من خبث الطبيعة وسوء التربية

فإن صاحبه ناقص العقل سىء التربية وإلا فماله وللناس وما الذى يضره من نعمهم حتى يتنى زوالها وما الذى يناله من وراء حسده سوى تعذيب نفسه وإيلامها . إن مثل هذا يجب عليه أن يعالج عقله حتى يدرك أن ما يتصف به من هذا حماقة وجنون لامبرر له فإنه لا ينجى من ورائه لذة عاجلة حتى يضحي من أجلها نعيم الآخرة الأجل ولا يظفر منه بسوى العذاب الاليم فى الدنيا والآخرة فإذا أمكن للحاسد بأى سبب من الأسباب أن يمنع نفسه من إيذاء المحسود بالقول والفعل فإنه يسهل عليه القضاء على الصفة النفسية التى تدفعه الى الإيذاء ويرتفع عنه اثم الاضرار بالناس . فعلى كل حاسد أن يذكر دائماً بطش الله وقوته قبل أن يبطش بعباد الله وإن يعلم أن الله شديد العذاب وأنه لعن الظالمين وأعد لهم سعيراً وأن كل ذنب يغتفر بالندم ما عدا حقوق العباد فإنها لا تغتفر إلا إذا ردت اليهم أو ساءحوا فيها . وأنه لن يستفيد أدنى فائدة من وراء الحسد والكبر والعجب سوى الآلام التى تساور نفسه والهموم التى تنابها عند ما يعجز عن نيل ما تطلبه منه . وأن يذكر دائماً أن كل منصب لا يدوم وأن كل رئاسة لن تستمر . فكم رأينا فى بعض حياتنا القصيرة رؤساء أصبحوا مرءوسين وسادة أصبحوا خدماً . وأعزة أصبحوا أذلة . وليس من الكياسة والحزم أن ينغص الإنسان عيشه ويعذب نفسه ويعتدى على خلق الله من أجل أمر زائل لا يدوم لأحد ولا يبقى للمخلوق .

ومع ذلك فالمناصب والرئاسات تكتنفها مسئولية عظيمة عند الله وعند الناس . فلا ينجو من شرها إلا من جاهد نفسه جهاداً كبيراً وحاسبها حساباً عسيراً كي يقف معها عند الحد الذى يقتضيه الحق والواجب ولا تحمله شهوتها على الخروج عن العدل والانصاف . فمن كان له عقل سليم ونظر صحيح فلا يندفع فى سبيلها الا حيث يظن من نفسه القدرة على دفع شرها . على أنها كغيرها من لذات الحياة وأنعمها يمكن الوصول اليها من طريق مشروع لا يترتب على سلوكه ضرر أحد من خلق الله فإذا جاءت من هذا الطريق فذاك وإلا فإنها مهما عظمت لذتها وطالت مدتها لا تقاس بمشغال حبة من غضب الله تعالى ولا تساوى لحظة واحدة من عذابه وكذلك سائر لذات الدنيا وزينتها فإن من وصل إلى شئ منها من طريق مشروع واستمتع بها حلالاً طيباً فهو بممدوح . ومن قعد به حظه عن الوصول إلى ما يشتهى وجب عليه أن يصبر على ما منع عنه ويرضى بما قدر له وإلا كان حيواناً مفترساً وذنباً ضارياً لا يعنيه إلا الوصول الى لذاته مهما ترتب عليها من الفتك بغيره والاعتداء عليه .

ذلك بعض ما يعالج به الإنسان نفسه من صفات النفس التى يترتب عليها الضرر بخلق الله على أنه ينبغي للمسلم الذى يدين بالاسلام حقاً أن يتأمل دائماً فى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكثر من الاطلاع على سيرته الكريمة وسيرة أصحابه . ويدبر النظر فيما كان عليه أتباع الرسول الصادقين من سلامة الصدر وطهارة القلب ومعاملة بعضهم بعضاً بالرفق والرحمة فلا يتحاسدون ولا يتباغضون . فهم كانوا دائماً إخواناً متصافين يتعاونون على البر والتقوى ويتناهون

عن الأثم والعدوان وبذلك أعلا الله قدرهم في الدنيا وأعد لهم في الآخرة جنات النعيم .
فالمسلمون الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه يحب عليهم أن ينزعوا من صدورهم العداوة
والبغضاء ويطهروا أنفسهم من الضغائن والأحقاد . فمن غلبت عليه طبيعته ووجد من نفسه بغضاً
لواحد من خلق الله وجب عليه أن يكف عنه يده ولسانه وأن يعالج نفسه حتى تبرأ من هذه النصفة
التي نهى الله عنها ورسوله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحاسدوا ولا تناطعوا ولا
تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً » أخرجه أحمد والبخاري ومسلم
هذه هي آداب الاسلام وتعاليم الكريمة التي لا يفاج من حاد عنها . ولا يسعد من خالفها .
ولا يشقى من تمسك بها . فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباعها في كل شأن من شئونها ويهدينا الى
سبيلها القويم وطريقها المستقيم ويقينا شر الحسد وغوائله إنه بعباده رءوف رحيم

الباب الثالث

في ذكر بعض صفات النفس الممدوحة

تمهيد

قد علمت في أول الكتاب أن الانسان مركب من أمرين . أحدهما الجسم المادى والمواقف من
العناصر المختلفة . والثاني العقل وإن شئت فسمه بالنفس أو الروح . وهو الذى يمتاز به الانسان
عن الحيوان وبه يدرك الخير والشر ويعرف الفضيلة والرذيلة . وما سوى العقل من وجدان وحس
باطن وظاهر فانه عون للعقل على ذلك الادراك .

فالانسان يحكم بأن هذا ممدوح وذاك مذموم وهذا خير وذاك شر بالبراهين التي يرتب العقل
مقدماتها مما يصل إلى الخواص الباطنة والظاهرة من المشاهدات والتجارب والأخبار الصادقة
والنظر في أراء الأمم وأحوال الناس . على أن العقل الانسانى مهما أوتى من قوة فانه يصيب ويخطئ
فلا بد له من الاستناد إلى قوة معصومة من الخطأ حتى يكون حكمه صحيحاً دائماً . وتلك القوة هي
قوة الوحي الالهى الذى أشار الله تعالى اليه بقوله (ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو
الا وحي يوحى) فعند ماضل العقول وتشبهه عليها الأدلة وتضطرب لديها المقدمات ترجع الى ميزان
الوحي فهتدى وتنظر فيما أتى به الدين فتسكن لأنه من لدن عليم خبير لا تخفى عليه خافية من خلقه .
ولا بأنيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه . فما يأمر به الدين فهو فضيلة . وما ينهى عنه فهو رذيلة
وما يستحبه فهو شر . وما يستحسنه فهو خير .